
المنبوذ

الكتاب: المنبوذ

المؤلف: عبدالله زايد آل زايد

تصميم الغلاف وإخراج الكتاب: Designer One ديزاينر ون

الرقم الدولي للكتاب: ISBN: 978-0000-00-000-0



مداد للنشر والتوزيع
Medad Publishing & Distribution

دولة الإمارات العربية المتحدة – دبي
P. O. Box: 21521
www.medadpublishing.com
e-mail: info@medadpublishing.com
Twitter: @medadpublishing
Instagram: @medadpublishing
Tel: 0097142849211

الإهــداء:

إلى الذينَ نحبُّهم فيرحَلون...

إلى الذين نفتقدُهم فلا يأتون...

إلى أخي علي.. الذي غيّبَهُ الموتُ إثرَ حادثٍ أليم..

هو وزوجتهُ وطفلتهمَا الصّغيرة أثير...

فإنْ رأيتَ أخَا الأحــــلامِ منفـرِداً
عن قومِهِ وهْو منبــــــوذٌ ومحتَــقَرُ

فهوَ الغريبُ عن الدُّنيا وســـاكِنِها
وهو المهاجِرُ لامَ الناسُ أو عـذرُوا

وهو الشديــــدُ وإن أبدَى مُلاينَةً
وهو البعيدُ تدانىَ الناسُ أم هجرُوا

من "المواكب" لجُبران خَليل جُبران

كانت البداية

"فأعظمُ مَجدي كانَ أنكَ لي أبُ!"

استغربتُ كثيراً رنَّاتِ الهاتفِ في بدايةِ ذلكَ المساء، فحتى المزعِجونَ والمشاكِسُون قرَّروا تجنُّبي.. فأنا أقومُ برصد أدق تفاصيل حياتي.. ذلك أن مساحة الفراغ الذي أعيشه كبيرة.. فالمكالمات الهاتفية التي أتلقاها طوال الأسبوع تعد على أصابع اليد الواحدة، لذلك كلما سمعت رنَّات الهاتف لا أصدّق أذنيّ.. ولكنني كنت أتمالك نفسي وأكابر رغم فرط سعادتي، فأتركه يرنّ حتى الرنة الرابعة، حيث أردّ وأنا متلهّف لتقبيل وشكر المتصل من أعماق قلبي على تذكّره إياي. لكنني كنت دوماً أكتشف أن لا أحد يتصل دون سبب يهمّه ويدفعه لتكبّد عناء الضغط على أزرار الهاتف، وحيث أنني لم أكن مسؤولاً كبيراً أو ذا منصب رفيع قد يحتاجني فيه الناس أو تحتاجني صداقات الأصدقاء، وحب الناس والخلان، كانت الوحدة مطبقة تماماً. لكنني لا أفسّر الأمور هكذا دوماً، فأنا أُرجع تعثري الاجتماعي إلى أسباب ذاتية. وأوبّخ نفسي لهذا الفشل.

في ذلك المساء كان المتصل شقيقي. كان يحدثني من تلك المدينة الحالمة القابعة بين سلسلة من الجبال الشاهقة، التي لا تعرف الحرارةُ وارتفاع درجاتها إليها سبيلاً، لقد أصبحت اليوم مكتظة، والطرقات في كل اتجاه. تضاءلت المساحات الخضراء، وأصبح الناس يحتاجون إلى مكيفات الهواء البارد! إلا أنه وبرغم ذلك مازال بعض أرجائها ينعم بالهدوء الجميل.. بقي هنا أو هناك

عدة قرى و(هجرٌ) صغيرة تذكّرك بسطوة الزمن وقوة الأيام وما تحمله من عواصف ورياح التغيير التي لا تبقي ولا تذر.

كان صوت شقيقي لا يوحي بأن الأمرَ طبيعيٌّ. فقد بدا لي أنه متعَبٌ يفتعلُ الهدوء.

لفي الحقيقة لم تعد هذه النغمة في صوته غريبة على مسمعي، فهو دوماً يحدّثني بهذه الطريقة الجامدة الباردة حدَّ الجليد، كنت أعتبر أن هذه الصفة قد اكتسبها من الأيام المؤلمة، وقد حزنت لبعض الوقت بعد أن اكتشفتُ أنه – فقط – يمنحني شرف هذا البرود وحدي دون سواي من إخوتي أو حتى أصدقائه، حقيقة أنني لم أحزن لبعض الوقت وحسب، إنما طال حزني وامتدّ، ثم قررت أن أوقف آلامي وأن أترفّع عن الأحاسيس المرهفة، وفي كلا الحالين لم يعرني انتباهاً حتى ولو للحظات. في تلك المكالمة قال:

– إن والدك يرغب في رؤيتك بأسرع ما يمكن!

– حسناً دعني أكلمه..

– إنه نائم.. لكن قبل نومه طلب حضورك.

– هل أبي مريض؟

– هو متعب قليلاً.. أنت تعرف أباك جيداً.. يرهق نفسه بالزراعة والحصاد والحرث.. وشيخوخته لم تعد تحتمل.. إنه حتى لا يسمع النصيحة.

هذا كل الذي تمكنت من معرفته.. لكنني كنت أفكر في جملته: "إن والدي العجوز لا يسمع الكلام"! ابتسمت.. وتخيّلته مزهواً فرحاً بتلك الأراضي التي طالما أحبها.. وكانت الفلك وهو الكوكب السماوي الذي يدور حولها. عندما أغلق الخط الهاتفي.. كنت أستمع إلى لنغمات المتقطعة.. دن.. دن.. دن.. دن.. هل كان لديّ أمل في أن أعود وأسمع صوته فيخبرني بالمزيد!

اتصلت بشركة الطيران للحجز على أول رحلة للسفر، وبعد أن ردّ موظف الحجز، بادرته بوجهتي ورغبتي في السفر بأسرع ما يمكن.

(بعد لحظات من الانتظار على الهاتف)

. لا توجد مقاعد.. هل أحجز لك على قائمة " الانتظار " لرحلةٍ بعد أربعة أيام؟

. لقد اتصل شقيقي الآن وأخبرني أن والدي يريد مقابلتي.. قد يكون مريضاً ويريد رؤيتي.. وأنا قلق عليه كثيراً.

(ردّ موظف الحجز بحدّة)

. "يا أخي ستقصّ عليّ قصة حياتك".. لا يوجد حجز.. هل كلامي مفهوم؟ هل ترغب أن أحجز لك "انتظار"؟ على والدك أن ينتظر!

(شعرت بالغضب والمرارة)

. لماذا ينتظر والدي.. هل كنتَ ستتفضل علينا برحلة مجانية.. أم كنتَ ستدفع ثمنها المبالغ فيه؟

. هل تريد أن أحجز "انتظار"، "(خلّصنا ترى صدّعنا" من الضغط والزحام على رحلات الطيران للمدن النائية).. لكن الجيّد أنك لم تقل إن والدك توفي، كما يفعل ركاب هذه الرحلات عندما لا يجدون مقاعداً.. سأعطي حجز " انتظارك " أولوية لهذه الميزة!

. كنت أشتاط غيظاً وأنا أجيبه: هل تعلم أن كلماتك فيها عنصرية، وطبقية غبية، لفظتها حتى الدول العنصرية، وبدت على لسان أمثالك سلوكاً شائناً. إنه لا يمكن لإنسان أن يدّعي موت حبيب من أجل الحصول على مقعد في إحدى رحلاتك البائسة لو لم يكن محقاً. لكن كيف تصدقه وحقدك يعميك، جميع أفراد هذا الوطن كيان واحد وبالتالي فإن الجميع جزءٌ فعّال في بنائه وتطويره ولهم كامل الحق في شركتك كونها وطنية، وكوننا ننتمي إلى هذا الوطن، رغماً عن أنفك!

. هل تريد أن أحجز لك " انتظار "؟

. لا، شكراً، لا أريد.

من فوره أغلق الخطّ في وجهي. وفي أقل من خمس دقائق استمعت مرتين لتلك النغمات المتقطعة.. دن.. دن.. دن.

هذا يعود لتعثري المستمر في التواصل الجيد مع الناس. دوماً أعطي الأمور تفسيراً أكبر مما هي عليه. هل رأى أحدكم أنني

كنت غاضباً على شقيقي أو موظف الحجز؟!
برغم هذا قمت بتجهيز حقيبتي، وأنا أكفكف دموعي، فالقلق والخوف على والدي، وتلك الغصّة اللعينة في حلقي تؤرّقاني.. فأنا أعلم تماماً أنه من أجل الحصول على مقعد في إحدى الرحلات المغادرة لابد أن أستجدي هذا أو أطلب وأتوسّط إلى ذاك. لقد ضربتنا المحسوبيات في الصميم.. وأصبحت تقود علاقاتنا الاجتماعية.. وأصبح الانتفاع والاستغلال شهادة نجاحك في محيطك.. ولم تعد أشكال الوساطة والمنافع المتبادلة تثير الاستغراب.. بل إنها بداية الأبجدية السهلة في صميم الأنانية التي أصبحت في أذهاننا شكلاً جميلاً من أشكال الحياة المعاصرة.
ذهبت إلى منطقة وسط المدينة المزدحمة.. حيث هناك مركز النقل البري وتجمّعٌ لسيارات الأجرة.. لكنني توجهت إلى شركة النقل البري الكبرى.. التي تملك أسطولاً كبيراً من الحافلات المكيفة والمجهزة للرحلات البرية.. وسألت الموظف الذي يقبع خلف شباك التذاكر:

. متى ستغادر أول رحلة؟

. بعد ساعتين.

. احجز لي مقعداً واحداً إذا تكرّمت.

. مائة وخمسة وعشرون..

ناولته المبلغ المطلوب ثمناً للتذكرة..

. رحلة موفقة.. هكذا قال موظف شباك التذاكر وهو يناولني تذكرة صعود الحافلة.

وعندما حان موعد بدء الرحلة البرية صعدت الحافلة التي كانت خالية إلا من بعض المقاعد المتفرقة وكان يجلس فيها عدد من الجالية الآسيوية، لذلك حظيت بثلاثة مقاعد خالية تماماً بجانبي. وقبل الانطلاق جال السائق بنظره نحونا كأنه يتفحصنا، و لم أفهم السبب. ثم توجه إلى مقعد القيادة وانطلق بالحافلة.

الرحلة..

في أوقات السفر ينتابني حزنٌ عميقٌ، وشعورٌ بالغٌ بالظّلم والفرار. وفي تلك اللحظات كانت أحاسيسي أشبه بخيوط العنكبوت من وهنها وشدة رقتها. كنت كئيباً جداً. وأحاول أن أركّز تفكيري في شيء محدّد، لكنني لم أكن إلا في فوضى ذهنية شاملة.

بعد أن تجاوزت الحافلة الزّحام والتوقف المتكرر بسبب الإشارات الضوئية وسط المدينة.. وبعد أن استقرّت على طريق السفر، أحسستُ أن عقلي بدأ يستقرّ هو الآخر من تموّجه ومن هياجه وفوضويته العارمة. وعندما ابتعدنا عن المدينة وغادرنا الأنوار وانسكب علينا الظلام.. نامت الأجساد، وغطانا الهدوء، إلا من همسات زوجين في مقدمة الحافلة كأنهما عصفوران جميلان، وضحكات خافتة لعاشقين. أما أنا، وقد أسرني المنظر، فقد وضعت رأسيَ الحزين المثقل بالهموم على زجاج النافذة ورفعته عالياً لأجد القمر في مكانه المعتاد في محاولاته الدائمة المتكررة والدؤوبة المخلصة للاكتمال ليغدو بدراً، سعيٌ طموح متكرر ليبلغ غايته، وكانت النجوم تحيط به – كعادتِها – بجمالها الأخاذ.

" فأعظم مجدي كان أنك لي أبٌ

وأكبر فخري كان قولك: ذا ابني"

لقد صدق حالي في هذا البيت الشّعري لإيليا أبي ماضي. قلته لأبي العجوز ذات مساء بعيد، وأنا أقود (السيارة) مغادِرَين المدينة نحو أراضيه الزراعية، في أجواء من الظلمة – تماماً كما هو حالي الآن — طلبَ مني أن أعيده عليه أكثر من مرة. بعدها كنت أذكره له دائماً في أوقات مختلفة.. كان كالسرّ بيننا، وكان يردُّ عليّ بضحكة خفيفة ويهزّ رأسه بشموخ. مازلت أتذكر كلماته وقصصه عن تلك الحياة التي عاشها جيلاً كاملاً، لم تكن فيه الأحوال المعيشية جيدة، ففي نهاية القرن التاسع عشر الميلادي كانت البلاد في مراحل نموّها الأولى وبداية العهد التأسيسي لدولةٍ انبثقت من رُكام التخلّف والجهل والعصبية والتقاتل. كان لا بدّ أن تمضي عقود من الزمن حتى تتحقق النهضة والتطور. في تلك الحقبة الغابرة عاش آباؤنا وأجدادنا بآمالهم وآلامهم ينحتون الصخر في أحوال معيشية صعبة، في حياة ملؤها البؤس والفاقة. تجتمع كل معاني الحرمان والقسوة في حياتهم التي خاضوا معاركها بكل شرف وصبر.. لا يشدهم نحو البقاء إلا فُسحة الأمل، وما كان يتراقص في صدورهم من قلوب لم تعرف إلا الحب والنقاء.

في تلك الحقبة عاش آباؤنا الألم مصحوباً بمرارة الأميّة والجهل. لم تكن معاركهم مع التضاريس الصعبة والطبيعة القاسية وحسب، بل كانت تشمل كل نبضات وتفاصيل الحياة، كانوا يحاربون

الوباء: الأميّة والتخلف، بما كانوا يزرعونه في قلوبنا من معاني النبل والصدق. في الوقت الذي يعانون فيه الخيانة والنهب وفقدان الأمن. كانت معاناة السكان مستمرة فبقايا الغارات القبلية متواصلة والعصبية مترسّبة داخل نفوسهم. فحياة النظام لا يعرفونها.. يدركون أنه لتعيش لا بدّ أن تكون قوياً، أما الضّعفاء فمصيرهم الموت جوعاً أو قتلاً أو فريسةً للسباع الضارية. لذا كان من الطبيعي أن يلوذ كل فرد بقبيلته وعشيرته ويقوّي انتماءه لها، فترسبت الانقسامات وأصبح ولاء الفرد لقبيلته وعشيرته مطلقاً، لا يحدّه قانون أو تمنعه سلطة. كانت عملية إصلاح المجتمع مجرد فكرة لم تطرق ذهناً! أما العمل على محو الأمية ونشر الفضيلة وتعزيز القيم النبيلة التي كانت موجودة أيضاً، فلم يكن من خيار لأحدٍ سوى التدرّج وإدخال التعليم والمستشفيات ومدّ كافة وسائل المواصلات لهذه القبائل و(الهجر) وإرسال الأبناء إلى المدن لمواصلة تعليمهم والتعرف على جانب آخر من الحياة. لكنّ آخرين من رجالات هذه المجتمعات لم ينتظروا هذا التحول البطيء، حيث قرّروا الرحيل والسعي لتحقيق حياة سعيدة مستقرة بعيداً عن مصدر الوباء، في محاولة لاختصار الزمن، ليعيشوا كل أسباب الراحة وينعموا بها، فانتقلوا نحو الحضارة. نحو المجتمع الجديد الذي بدأ يتشكل، بحثاً عن الرزق وتحقيق الذات والشعور بالوجود الحقيقي، آملين أن تكون هناك أكثر من فرصة لأبنائهم

للعيش برفاهية وكرامة واستقرار. وآخرون — كانت - رحلاتهم نحو المجهول حتمية وقسرية هرباً من واقع مرير أو تسلط جائر.
وسط هذه الأفكار التي كانت تتوالى وتموج في ذهني كنتُ أتذكر أحاديث أبي العجوز عن رحلاته منذ أن وعى الحياة! إنها ضربٌ من السعي الحثيث عن حياة أفضل.. كانت قليلة تلك اللحظات التي أنفرد فيها بأبي، ذلك أنني كنت أعيش في العاصمة التي عشقتها حتى الثمالة، وعشقتُ رياحها وقسوتِها وناسها.. لذلك كانت المرات التي أعود فيها لرؤيته تعدُّ على أصابع اليد الواحدة، وآخرها كانت قبل خمسة عشر عاماً! ذلك أنني في سعي متواصل وعمل متكرر لبلوغ غاية تسمّى تحقيق الطموح. وبرغم هذا لم أفهم سرّ فرحه وفرط سعادته عندما كان يراني أمامه في زياراتي تلك، أو عندما كنت أقود المركبة لأوصله إلى مزرعته التي طالما أحبَّها. وكنت أنتهز فرصها لأسمع منه، في محاولة تعلم شيء عن حياته، أو لأفهمه، وأفهم سر هذه الطمأنينة الدائمة.
في ذلك المساءِ كنا في طريقنا مغادرَين المدينة وصخبها. أتذكر كلماته عن الجرح الأول الذي تعرّض له في حياته. سألته وأنا أضحك: ألا توجد لك أسرار؟ ألم تحب؟ إذن ما هو الجرح الأول في حياتك؟ كن صادقا معي. لن أخبر أحداً. أعدك. تنهّد الشيخ العجوز تنهيدة طويلة، لكنها ساخنة مؤلمة. قلت في نفسي: بعد هذه السنوات هل مازال لهيب الحب والغرام يضطرم في قلبه؟

مازلت أذكر عندما بدأ يحكي لي قصة أول جرح تعرّض له في حياته وهو الذي آلمه كثيراً. لكنه عندما بدأ في الحديث، انطلق بعفوية، كأن سرده لتفاصيل قصته يزيح عن كاهله عبئاً ثقيلاً. بدأ بحماس وكأنه كان ينتظر هذا السؤال منذ فترة طويلة من الزمن. جعل يقول: تريد أن تسمع قصتي أيها الصغير.. حسناً سأرويها لك. ومن هناك بدأ قائلاً....

الجرح الأول

الأب العجوز يحكي:

منذ فتحت عينيّ وجلت بهما في أرجاء محيطي أدركت النقص الهائل الذي يجتاح نفسي. وعندما بدأت خطواتي الأولى علمت أن المكان رغم اتساعه يضيق عليّ.. لكنني عندما كبرت وبدأت أدرك تأكدت من الحقائق الغائبة أو المغيبة، فأبي الذي توفي قبل ولادتي ترك إرثاً كبيراً من الأراضي الزراعية والأنعام والمواشي، ويفترض أن أنعم بها لا أن أشقى لمشاهد الغرباء ينهلون من خيرات بلادي. إن الكبار عندما يغيّبون ضمائرهم يشقى الصغار ويتعبون. في أحد الأيام الصيفية والشمس تتوسط كبد السماء عدت إلى المنزل طلباً للماء ولكسرة من الخبز أسدّ بها رمقي، فمنذ المساء لم يصل إلى جوفي لقمةٌ من طعام، عندما اقتربت من المنزل الحجري شاهدت شقيقي الأكبر ينعم بالنوم تحفه الأشجار الخضراء والظل الظليل. ابتسمت ابتسامة عريضة وجعلت أسير الهوينى على أطراف أصابع قدميّ لأنّي لا أريد إزعاجه أو إيقاظه. دلفت إلى المنزل واتجهت إلى المطبخ فوجدت الماء والخبز وقليلاً من العسل. لم يكن هناك مجال للتفكير، فجلست وتناولت الطعام فأتيت عليه كاملاً، وارتويت ماء، ثم عدت إلى الحقول.

ساعدني الطعام في أن أواصل عملي في الحرث والسقي بكل

نشاط وعلى أكمل وجه. وعندما بدأت الشمس في المغيب جاء أخي الأكبر يزأر ويسأل: هل جئت إلى المنزل اليوم؟

. نعم..

. هل أكلت الخبز والعسل؟!

علت وجهي الدهشة وأجبته:

. نعم..

ومن تلك اللحظات بالتحديد اتضحت الصورة في ذهني.. فأنا أنظر لأخي الكبير نظرة الابن لأبيه.. وهو ينظر لي نظرة العامل الذي يؤدي عملاً محدداً ولا بدّ أن يأتي يوم يُطلب منه الرحيل.. لم تكن هذه الصّورة غائبةً عني وعن ذهني البسيط. أشعر بها، لكنني كنت أبعدها منّي لأنني لا أسمح لنفسي بالتفكير بسوء الظن بالآخرين فما بالك بشقيقي. حتى وإن كان هو الذي قد أوسعني ضرباً وشتماً وطردني من أرضي ومن بيتي وطلب عدم رؤيتي ثانية بسبب فتات الخبز وقليل العسل. ومع فرار الشمس للمغيب في ذلك اليوم كنت وسط الحقول أبكي الوحدةَ ويدَ أبٍ تشفقُ وترفق بي، وحنان أمٍّ ترعاني وتحميني. هبط الظلام فاجتاحت نفسي برودةُ الوحدة، وتخيّلت طيف أبي وأمي وتمنّيت وجودهما فبكيتهما طويلاً. وفي منتصف الليل بدأت تظهر في نفسي علامات الأمل، الأمل في أن يعدل شقيقي عن قرار طردي. وما إن بزغت أضواء الفجر حتى كنت على يقين أن شقيقي سيطلب

مني البقاء بل وسيعتذر لي، لذا عدت في الصباح إلى مهام عملي وكأن شيئاً لم يحدث، بل أخذت أنتظر وصوله إلى الحقول حتى أطلعه على ما أُنجزَ خلال اليومين الماضيين، إلا أنني وأنا منهمك في السِّقاية وتنظيف الثمار فوجئت به ومعه أحد الفلاحين، فتوقفت أشاهده وهو يعطي تعليماته إلى العامل الجديد بأن يفعل كذا وكذا. امتلأت عيناي بالدموع والخوف، ولم تتبدّد مخاوفي إلا عندما شاهدته يلوّح إليّ بأن آتي نحوه، فجعلت أمسح دموع عينيّ، ولا أكاد أصدق. قفزت نحوه وأنا أتمتم: ما الذي جعلني أسيء الظن بشقيقي؟ لقد أحضر مَن يساعدني، فهو دائماً يقول إنني لا أحسن العمل. لكنني عندما اقتربت منه شاهدت وجهاً غاضباً قاسياً فتضاءلت ابتسامتي حتى اختفت. ما هي إلا لحظات من الارتباك والتردد والخشية داخل كياني الغض، حتى وجه نظراته نحوي وقال: جمعنا ملابسك فاذهب لأخذها، ولا أريد أن أرى وجهك إلا وأنت رجل. ثم انهمك مع الفلاح الجديد في الإرشاد والتوجيه. أما أنا فقد ضعت تماماً وأخذت أوجه نظراتي نحو شقيقي وتخيّلت أنني أصرخ في وجهه: أين أذهب؟ لمن أذهب؟ لماذا أذهب؟ كان لا بدّ أن يمضي بعض الوقت حتى أدرك أنني لم أقوَ على الهمس بأسئلتي فما بالك بالصراخ! عندها أدركت حدود مقاومتي لقرار جائر مثل هذا، وعلمت أن صمود الضعفاء لا يطول لأنهم ضعفاء، فحملت نفسي وغادرت بهدوء.

لقد طردت وأهنت. لقد أبعدت عن أرضي ليس بقوة القانون الغائب في تلك الحقبة، إنما بقوة الهيمنة والبطش والسيادة التي يمثلها نظام القبيلة المنحاز كلياً نحو الأفراد الأقوياء. طردت لأنني تناولت قليلاً من العسل الوفير الذي تصنعه خلايا النحل التي تملكها أمي. طردت لأنني تناولت فتاتاً من الخبز المصنوع من الذرة المزروعة في أرض أبي. هكذا وبكل أسباب البساطة انسحبت مخلفاً ورائي شقيقاً لا يحسن أن أقول إنني أكرهه. مخلفاً ورائي أرضاً تتسع لي وللعشرات. متسائلاً – بوجع – عن أسباب طردي وإبعادي. انسحبت بجرح ينزف في نفسي، وألم جديد داخل جوفي.

هروب نحو المجهول

كنتُ أتخيّلُ ذلك الحيّز المكاني – الذي لم أغادره منذ أن رأت عيناي النور – مركزاً للعالم وفيه ينتهي. كان عقلي أقلّ من أن يستوعب مساحاتٍ أخرى، ولذلك كان همّي ومكاني الوحيد الذي آوي إليه في المساء. ولأنني كنت أشعر – في السابق – بحبِّ الأقرباءِ وأفراد القبيلة عندما يزورون أخي أو عندما يمرّون بالقرب من الأرض الزراعية ويشاهدونني أعمل فيها، حيث يغمرونني بكلمات التشجيع أو بتقديم شيء من الخبز، لأجل ذلك لم أفكر أبداً في الابتعاد عن هذا المحيط المكاني. ومضى عليَّ وأنا في حالة التنقل بين مزارع الآخرين والنوم بالقرب من منازلهم، بضعة أيام، كانت كافية ليظهرَ لي لونٌ آخر لم أعهدْه من القسوة والضرب والإهانة. أحدهم أوضح لي بجلاءٍ الذي تغيّر فعلاً، والذي كنت بحاجة إلى معرفته، وهو تحولي من صاحب أراضٍ وأملاكٍ إلى صعلوكٍ حقير. من فتى له مستقبل مشرق من الغنى والترف إلى شاب مشرّد فقير، من شاب ينعم بحماية أسرته القوية التي تملك مساحات كبيرة من الأراضي، إلى إنسان وحيد مطرود لا يملك سوى ملابسه المهترئة التي تغطي عظامه الرقيقة. هذا التحوُّل احتجت إلى أيام قليلة لفهمه، أو لمعرفة حجم التغيّر الذي حدث في حياتي، فالمسألة لديّ لم تكن تتجاوز أن أخي

كان غاضباً وغداً أو بعد غدٍ سيعود ويرضى فينتهي كل شيء، لكنّ الأمر كان أكثر عمقاً وأكثر فداحةً في النتائج، وليس على النحو الذي تخيّلته أبداً، فقد وجدت أن الناس تتحول سلوكياتها تبعاً لتحوّل سلوك أخي القويّ، ووجدت الأقرباء أكثر تنكراً توافقاً مع تنكر أخي. ووجدت الضحكات تتلاشى والابتسامات تختفي، ويكبر الغضب وتتعاظم القسوة!؟ كل هذا كان يمكن لي تجاهله، أو عدم الالتفات إليه، لولا أنني أدركتُ أن ما كنت أنعم به من حماية ومنعة قد تلاشى، وبالتالي أصبحت عُرضةً للإهانة والضرب المتكرر.

الحقيقة أنني فهمت أن الهروب هو السبيل الوحيد لبقائي على قيد الحياة، ومن هناك فهمت - مستغرباً - كيف للإنسان أن يغادر مكاناً ألفه وأحبه خوفاً على بقائه!

إنّه صراع الغاب ذاكَ الذي كان سائداً، والذي كان يطحن الضعفاء في زمنٍ غابت فيه الإنسانية والقانون.

لذلك كان الرحيل خياراً وحيداً أمامي رغم مرارته وقسوته. ولأول مرة أبتعد فيها عن البيت الحجر. منزل أبي وأمي وأجدادي الذي شُيّد من أحجار هذا الجبل الذي يستظل به. الذي تم بناؤه من تربة هذه البلاد الطيبة. استيقظت قبل شروق شمس ذلك اليوم.. ألقيت نظرة على تلك الأماكن ثم غادرت، تدفعني للمسير كرامتي التي جُرحت وأنفتي التي مُرِّغت بالتراب، مسيرة

لم أكن أعرف معالمها أو أحدد لها وجهة. كان المهم في – تلك اللحظات – هو مواصلة الابتعاد. هذه السهول الممتدة الطويلة أعيتني، أما وعورة الطرقات – إذا صحّت تسميتها طرقات – فقد أتعبتني.. كنت أعاني الجوع والظمأ، والجبال بشموخها تبعث في نفسي الخوف والارتباك وكأنها لم تظهر القوة إلا أمام ضعفي وقلة حيلتي. كان لي شقيق آخر اسمه عليّ، فكرت أن ألوذ به وأطلب مساعدته. وخطر لي أنني أستطيع أن أحرّك في قلبه شيئاً من الخوف من سيطرة شقيقنا الأكبر على أملاك والدنا. كان يمكنني أن أوقظ في نفسه عدم الثقة فيه، وكان يمكنني أيضاً أن أدفعه للمطالبة بحقوقه وأن لا يؤجل هذا الأمر، خاصة مع أطماع شقيقنا هذا، إلا أنني فضلت أن أكون مهزوماً خيراً من أن أكون سبباً في مواجهةٍ بين أخويّ. فضلت أن أحمل على كاهلي همَّ الحزن وفداحة الظلم خيراً من التسبب في انقسام وشقاق بيننا، وفي ظني أنه سيسمعَ بما حدث لي وما تعرضت له من الناس.

لذا قررت أن أغادر مهزوماً خيراً من انتصار يكون فيه شقيقي هو المهزوم. وأعتبر النتيجة واحدة. قطعت الفيافي دون وجهة محددة، وسرت في القفار دون هدف معين. سأكذب لو قلت إنني في بحث عن أمل، فأنا حتى لم أكن أعرف هذه المفردة!!

وبرغم هذا كانت الطريق طويلةً ابتعد خلالها أمل الحياة. وما

أطول الطرق التي نسلكها دون معرفة المحطة التي سنتوقف فيها أو الغاية التي نرغب في بلوغها. لقد كان الواقع صعباً، انكسرت خلاله صورة الحياة الممكنة. إن الواقع أشدُّ قسوةً من الخوف.. وأشدُّ عنفاً من كل الظروف السيئة التي تغزو حياتنا وأذهاننا.

بعد السير الطويل.. كان التعب والإعياء قد أخذا مني كل مأخذ وأصبح جسدي منهكاً تماماً، ولكنني - وخشيةً من سباع الليل - كنت لا أسمح لنفسي بالراحة فقد كنت أبحث عن ملاذ آوي إليه حتى الصباح، و لم أكن أطلب أكثر من هذا. قضية الجوع والظمأ مؤجّلة، لأنّ قضية البقاء أوْلى بالمعالجة الآن.

كان الليل يرخي سدوله سريعاً، وقد أُنهكتْ ساقايَ من السير بسرعة في هذه الأودية وأنا أتطلع يميناً وشمالاً لعلي أشاهد منزلاً أو كهفاً أختبئ فيه. عندما بدأت أسمع عواء الذئاب تقترب منّي كاد الخوف يشلّ أطرافي وبدوت ضائعاً تماماً. عندها أدركت أنني ميت لا محالة. ستأكلني الذئاب، ولن يعثروا عليّ أبداً، فلن تُبقي مني شيئاً. وأنا في لُجة الرعب والموت اهتديت إلى فكرةِ تسلُّق إحدى الأشجار والبقاء على أحد أغصانها! كنت متعباً والنعاس يسيطر عليّ، لكن هيهات أن يجد النوم إلى جفوني طريقاً. فالخوف أخذ مني كل مأخذ، وخشية أن أقع فأموت بسقوطي أو أن تأكلني الذئاب، سيطرت على كامل تفكيري، لهذا بقيتُ مستيقظاً حتى شروق الشمس. عندها بلغ التعب

والإرهاق مني كل مبلغ وبدأت بالأنين من الإعياء. وبجانب هذه الشجرة اتكأت جالساً واختلطت دموعي بالعرق الذي ملأ وجهي من شدة حرارة الشمس والحمّى، ثم بدأت بالهلوسة، ثم ذهبت في غيبوبة.

رغبة الحياة..

مَن يقول إن الرحمة لا تنبعث من وسط القسوة؟ مَن يقول إن الصّلف وجمود المشاعر لا يأتي من ثناياهما نور من الهدوء والشفقة؟ هذا هو حالي، كنت ممدّداً وسط أحد الأودية وقت الظهيرة، والشمس تتوسط كبد السماء حين شاهد أحد الرعاة عدداً من الطيور تحلق في السماء. في مثل هذه الحالات لا بدّ أن تكون الذئاب قد أوقعت إحدى الشياه والتهمتها وهذه الطيور تحلق حول ما تبقّى. هكذا تبادر إلى ذهنِ ذلك الراعي المسن، فأخذ في النزول من سفح الجبل إلى الوادي، لكنه لم يجد الشاة المبقورة البطن! وإنما وجد فتىً مذبوحاً من الألم، من الأنين، من الخوف، من المرض.. اقترب والدهشة تعلو وجهه، وهو يأسف لموته. لكنني لم أمت، فلقد حرّك وجود الراعي رغبة الحياة في كياني المحطم. لقد أشعل الراعي أمل البقاء في القلب الصغير المتعب. حملني كما يحمل شاةً، وتوجه بي إلى منزله، وأنا بين الحياة والموت.

بعد أن استعدت عافيتي وقوتي، لم يكن لي ملجأ أعود إليه، ولم يطلب الراعي وزوجته مني المغادرة. ولم يشعراني – أيضاً – بأني عبءٌ عليهما أو ضيفٌ ثقيل، بل على العكس، كنت أشعر منهما بالحب والترحيب الدائمين. مضى زمن وأنا في ضيافتهما

أنعم بالراحة النفسية والذهنية، أما الراحة البدنية فليست واردة. كنت أؤدي أعمالاً شاقة من الرعي اليوميّ، وجلب الماء من الوادي إلى سفح الجبل، ثم تنظيف حظائر الحيوانات وحصد واقتلاع الثمار من أجزاء واسعة من الأراضي الزراعية في الجوار. لكن ذلك كله ليس له أهمية عندي فقد فتحت عينيّ على حياة مليئة بالعمل القاسي، حتى إنني ظننت أن هذه الدنيا مليئة بالعمل والتعب والشقاء، فلم أعد أطلب الراحة، بل أعتبرها خيانة أو أعتقدها شيئاً غريباً. أما العمل فهو الأساس الصائب ما دمت قادراً على الوقوف على قدميك، والشاذ هو هروبك أو تكاسلك. كان الراعي يلمس هذا التفاني الدائم ويشعر بهذا الحماس المستمر. وذات يوم – وأنا وسط الحقول أعمل كعادتي – كان الراعي وزوجته بجانبي نجمعُ بعض الثمار، عندما نهض وقال مخاطباً زوجته وقد ملأت قلبه الرحمة والشفقة: أعتقد أن وقت الحقيقة قد حان.

لم أفهم حديثه في تلك اللحظة، وفي المساء طلب حضوري، وما إن دلفتُ غرفةَ العجوزين، حتى وجدت الزوجة تبكي والراعي غارقاً في الحزن، والدموع تملأ عينيه. قلت للراعي: خيراً يا عم.. أجابني: اجلس واستمع جيداً لما سأقوله لك.

ردُّ الجميل

قبل عشرين عاماً من الآن أصيبت هذه البلاد بوباء قتل الكثير من سكانها وهجرها الكثيرون. ومما زاد الأمر معاناةً ومشقةً علينا في ذلك الوقت الجفاف وقلة الماء. مات كثير جداً من الناس. لا توجد عائلة إلا وفقدت أحد أبنائها، أما أنا فقد فقدت ابنتين وأصيب ابني الوحيد بذلك الوباء، فهجرت هذا المكان أنا وزوجتي وحملت ما معنا من متاع قليل على كتفي، ووضعنا طفلي الصغير المريض على ظهر الحمار. مضت أيام في تعب وضنك شديدين، تركنا ما معنا من الماء لابننا الذي شارف على الموت، وبعد أربعة أيام حافلة بالمشقة والعناء وعند حلول المساء كنا قد وصلنا إلى أرض زراعية حيث وجدنا الكثير من الذرة فأشعلنا النار وأكلنا منها وارتوينا من الماء الذي كان وفيراً في ذلك البستان.

لم تشرقْ شمس ذلك اليوم إلا على صوت رجل ضخم صرخ بنا وتوعّدنا بالقتل، وهو يعني ما يقول ويقدر عليه. إنه زمن الأقوياء وحسب!! فما كدت يا بني أستيقظ إلا وكنت أموت من الخوف، فقد التهم الحمار الكثير من الزرع، بل إنه عاث فساداً في الحقل، فكان الرجل يشتاط غيظاً وغضباً ويزفر وينهر. تقدمت منه ونظرت إلى زوجتي وطفلي وأشرت إليهما إشارة العاجز عن

الحديث، وماذا عساي أن أقول. وجّه الرجل بصره نحو طفلنا وقال: ما هذا؟ قلت: ابني وقد أصيب بالطاعون، ونحن نسير منذ عدة أيام بدون طعام أو ماء وقد فقدت ابنتيّ الوحيدتين. نظر إليّ وقد هدأت ملامح وجهه، وكأن الرحمة والشفقة قد دلفتا لتوهما قلبه! وأشار إلى من كان معه من العاملين، بحمل طفلي والمتاع، ثمّ إليّ لألحقَ به بدون أن يتكلم. أسكننا الرجل غرفة تم بناؤها من الحجر وأعطانا الكثير من العسل وبقينا في ضيافته ثلاثة أشهر، تعافى ابني خلالها من المرض.

وعندما هممت بالمغادرة والعودة إلى دياري أعطاني ثلاثة أكياس من الذرة محملة على ظهر الحمار، بدون أن أجلسَ معه عشر دقائق طوال إقامتي. توجّهتُ إليه قائلاً: لقد أكرمت وفادتي وأحسنت إليّ وإلى زوجتي وطفلي، وإني أسأل ماذا تنتظر من عاجز مثلي؟ نظر إليّ وقال: لستَ عاجزاً.. لا أريد منك شيئاً، وما أدراك، قد أزورُكَ أزوركَ ذات يوم، عندها عاملني بمثل هذا. هززت رأسي مستغرباً، وأقول في نفسي: يزورني! كيف وأنا الفقير المعدم؟ وماذا يريد رجل مثله من مثلي؟ ثم مضيت عائداً أنا وزوجتي وطفلي إلى ديارنا.

عندما وجدتك في ذلك الوادي، لا أعلم لماذا شعرت بالألفة نحوك. وعندما حملتك بين يديّ، نظرت إلى وجهك فعادت إليّ ملامح ذلك الرجل الكريم بعد أن غابت عن ذاكرتي خلال

السنوات الماضية. ومنذ الأيام الأولى لبقائك وأنت تعاني المرض. كنتَ تهذي باسم أبيك وأمك وإخوانك، فعرفت أن ذلك الرجل قد أتى لزيارتي كما قال.. وما عليّ إلا أن أوفي له كرمه، وأردّ له حسن صنيعه. فلم يكن ذلك الرجل الكريم إلا أباك.

لم يستطع الراعي أن يكمل قصته، ولا أن أستمع إليه.. وما كان لكلٍّ منا إلا أن يغادر إلى فراشه. في اليوم التالي سألت الراعي قائلاً له: إذن أنت لم تبقني هذه السنوات من أجل عملي ونشاطي؟ فابتسم وقال: انظر جيداً يا بني. إن حياتنا أسهل مما تظن فنحن نتناول طعامنا من لحم الطيور الوفيرة التي أتمكن من صيدها أو من الحيوانات البرية، كلما احتجنا. وأعمل أنا وزوجتي على قدر استطاعتنا عند أصحاب الأراضي، وما نأخذه من طعام وغذاء يكفينا، ثم إن هاتين الشاتين يكفينا لبنهما! وأنت تعرف أنني أملك عوداً من النحل يعطينا ما نحتاج إليه من العسل. صحيح هو قليل لكنّ الله هكذا يريد أن يرزقنا! صحيح أنه خلال سنوات بقائك معنا وبسبب نشاطك وعملك المتواصل زادت حصيلتنا من الغذاء والحبوب، وزاد رزقنا كثيراً، لكنّ الربّ وحده يعلم أنني لم آخذك معي للعمل عند أصحاب هذه الأرض من أجل استغلالك وانتهاز فرصة ضعفك، إنما أردت أن أشجع فيك روح العمل، وأن لا أزرع في نفسك

التكاسل والتواني والاتكال، لقد وجدتك شعلة من النشاط لم أكن أريد لها أن تخمد، بل أرغب أن تستمر وهذا لا يأتي بتركك تنام. كنت أرغب – إن لم أستطع أن أضيف لك شيئاً ينفعك في حياتك المقبلة – أن لا أفسد شيئاً مفيداً تعلمته في حياتك الماضية. وكان إخلاصك وتفانيك ثمرة لم أكن لأسمح لنفسي أن أفسدها. واليوم يا بني أجدك أصبحت فتى صلباً قوياً، ولو بقيت هنا كلّ ما تبقى لي من حياة لما استطعت أن أردّ إحسان أبيك إليّ في ذلك الوقت، وأعلم أن الحياة تتبدّل وتتغيّر خاصة في هذه الأيام. وأعلم أن هذا المكان سيتأخر وصول الخير إليه لأسباب كثيرة. لذا فإني أدفعك إلى الرحيل وأطلب منك ذلك تماماً كما طلبته من فلذة كبدي. وأنا أعاملك مثله. اذهب يا بني نحو الحياة الجديدة واسعَ في طلب الرزق.

القافلة

قلت أسأله، وقد أخذ مني الاضطراب والوجل كل مأخذ: ولكن إلى أين يا عم؟

قال: في مثل هذه الأيام من كل عام تمرّ قافلة تسير باتجاه الساحل. هناك مراكز للجيش يمكنك أن تلتحق بالعمل فيها، فالأعمال هناك كثيرة كما يقال لي، ثم إنني أعرف صاحب هذه القافلة فهو صديق لي. وفي وسط حديثه هذا، بدا عليّ التردد والخوف. كان يقول: اليوم أصبحت فتى قوي البنية، وإن بقاءك هنا لا جدوى منه. فأنا لن أبقى طويلاً بجانبك ولا أريد لك الاعتماد إلا على نفسك، ثم إن ذهابك وسفرك يعتبر سعياً لطلب الرزق. إني أحثك على ذلك لأن الله سيعينك، كما أن المستقبل أمامك، فلا بدّ أن يأتي يوم وتعود لزيارتنا، وتعود لأهلك وبلادك. ليكن هذا وأنت قوي حتى تسعدنا. عندما أنهى حديثه خرجت من الغرفة. نظرت إلى السماء. كانت صافية تماماً، والنجوم تملأها.

لم أنم تلك الليلة. كنت أفكر في المصير المجهول الذي ينتظرني، لكنني كنت أدرك أن لا خيار آخر أمامي. تماماً كما عشتُ من قبل: الظروف والآخرون هم الذين يقررون كيف أعيش وأين أعيش! لذلك جهزت نفسي وأغراضي لهذه الرحلة بكل استسلام وبكلّ سهولة وبساطة. مضت أيام قليلة وحضر صاحب القافلة

لزيارة صديقه الراعي، فحدّثه في شأني، وطلب منه أن يأخذني معه في الرحلة. وجّه نظره نحوي، وقال للراعي: إنه صغير ولا يمكن أن يتحمل مسيرة شهر في الطرق الوعرة، ثم ماذا عساه أن يعمل أو يصنع هناك، أبقه عندك عاماً آخر. قال الراعي والحسرة باديةً على وجهه: إن هذا الفتى أمانة عندي ولا أظنني أيها الصديق سأبقيه إلى العام القادم. خذه معك فإنه بخلاف ما يظهر لك، إنه قوي البنية، ويحب العمل، ومتفان، ومخلص.

عاد صاحب القافلة يقول وهو ينظر نحوي: لا يوجد عندي سوى جمل هائج فهل يستطيع امتطاءه؟ فأجبته: نعم. نعم. فردّ عليّ بحدة وعنف، قائلاً: سنرى ذلك في الغد، وفي منتصف ذلك اليوم وبعد تناول طعامي الأخير مع الراعي وزوجته الحنون، سرت مع صاحب القافلة إلى موقع انطلاقها وتجمّع ركابها حيث اكتمل عددهم. وفي اليوم التالي وقبل بزوغ فجره سارت نحو وجهتها. كنت ممسكاً جيداً بكل ما يتهيأ أمامي على ظهر ذاك الجمل، وبدت الطريق طويلةً، فأخذت أعيد التفكير في السنوات الماضية، وقصة أبي مع الراعي وزوجته قبل عشرين سنة، وكيف أنه بسبب ذلك الموقف النبيل من والدي وجدت الرعاية طوال تلك السنوات. أخذت أفكر في عناقي للراعي، وتوديعي لزوجته وهي تبكي وتوصيني بالتقرب إلى الرب دائماً، وأن أتجنب طرق السوء، في أن أجعل الحب والتسامح في قلبي.

الشاتان

بعد اليوم الأول أخذت آمن الجمل، أو لعلي نسيت التحذيرات التي نبهتني لخطورته، فأفلتّ يدي، ولكن الجمل كانت له خطط أخرى فقد قفز قفزة طرت على أثرها ووقعت على الأحجار فأصيبت يدي إصابة بالغة جدا. كنت أشعر برضوض أخرى متفرقة في جسدي. توقفت القافلة وحضر صاحبها وشاهدني أتلوى من الإعياء والألم. وقال موجهاً كلامه إليّ: ألم أقل لك تشبّث به جيداً؟ تباً لهاتين الشاتين المريضتين اللتين أغرتاني بأخذك معي. تقدم شخص آخر وقال: حسناً لم نقطع سوى جزءٍ يسير من الطريق، يمكن لأحدنا أن يعيد الفتى إلى أهله. وما إن سمعت ذلك حتى نهضت وقلت: لا. لا. إنني بخير وسأواصل رحلتي، برغم آلام يدي. وبينما شدني التفكيرُ في قول صاحب القافلة حول الشاتين، حملني أحدهم ووضعني على الجمل نفسه وربط يدي. ثم واصلت القافلة مسيرها.

آلام يدي كانت شديدة عليّ فأخذت في الأنين لا يقطعه إلا الإغماء، فتوجه أحد الرجال وقال لصاحب القافلة: إن ذلك الفتى يتألم وربما يصيبه المرض بسبب الإصابات التي تعرض لها، فهل كنت ستعامله بهذه الطريقة المليئة بالقسوة لو كان ابناً لك؟ وعندما توقفت القافلة للراحة طلب صاحبها حضوري. كنت

أمامه مسبلاً يدي شامخاً وكأنني أريد أن أقول له إنني بخير ولست مريضاً. ابتسم عندما شاهدني، وقال: هوّن عليك لا أريد أن أتركك هنا، أنا أعلم معاناتك وآلامك وأريد أن أساعدك. ثم أشار إلى من معه برعايتي، تم تغيير الجمل بآخر، وتم تجبير الكسر بإحكام. وكنا أثناء سير القافلة نسير إلى جانب بعضنا البعض.
كانت الرحلة طويلة تمتد لشهر أو أكثر، وتبادل الحديث وسيلة لقطع الطريق والترويح عن النفس. كان كلٌّ منا يحدّث الآخر بقصته، وكان صاحب القافلة. يتحدث عن تجاربه. كنت صامتاً أسمع وأسعد وأحزن بحسب فصول هذه القصص. ووجدت فرصة في تسامحه ودماثة خلقه أثناء حديثه فسألته عن قوله عندما سقطت عن الجمل، حول هاتيك الشاتين وكيف كانتا سبباً في أخذي معه. شاهدت التردد بادٍ على وجهه، فبدأت أفقد أعصابي. فقال: أيها الفتى لا أحد يقدم جميلاً لأحد بدون ثمن. أجبته وقد انسكبت دموعي: تبّاً، ما الثمن الذي أخذته من إنسان فقير، ينام – في كثير من الأحيان – هو وزوجته جائعين؟ لم يجب!! صرختُ في وجهه وقد توقفت بالجمل الذي أركبه عن المسير: تبّاً لك هل أخذت أيها السافل الشاتين من الراعي وزوجته ثمناً لتحملني معك؟! لم يجبني، فجعلت أبكي بحرارة، وأصرخ في وجهه وأنا أقول له: إنك – بلا شك – لست إنساناً. إنك بلا قلب. إن الراعي رجل مسن فقير ولا يملك شيئاً. تبّاً

لك. كيف سيعيشان وهما في كثير من الأحيان يقتاتان على لبن الشاتين؟! وفُجأة أوقف سيره أمام كلماتي ومن خلفه توقفت القافلة. أناخ جمله ونزل عن ظهره، ومشى بعيداً عن الطريق. كأنه يريد أن يستنشق بعض الهواء النقي بعيداً عن كلماتي. لحقت به وأنا أبكي وأقول: لماذا يا عم أنت قاسي القلب؟ لماذا لم ترحم ضعف الراعي وزوجته وفقرهما؟ ألا تملك قلباً؟! جلس، وبكى. ثم جعل يمسح دموعه وينظر إليّ. قال: منذ سنوات بعيدة جداً، قررت أن أكون قوياً قاسي القلب،، من يومها، لم أعد أشاهد دمعة واحدة على خديّ. ثم سكن قليلاً، ونهض. حملني على ظهر جملي، وأشار للقافلة بمواصلة المسير خلفه..

من أنا؟!

قال وهو يقترب مني: سأخبرك لماذا قلبي قاس. لم أكن أريد أن أستمع إليه، لكنه جعل يقول: هل تعلم أنني بلا أبوين؟ قلت له وأنا أمسح دموعي: هذا ليس غريباً، إنني أيضاً بلا أبوين. ضحك ضحكة هستيرية، وعالية جداً، وقال: إنك فتى عجول، لا أيها الفتى الأحمق، أنت لست مثلي. إنك تعرف أبويك حتى وإن كانا قد توفيا، أما أنا فلا أعرف أبي، ولا أمي. بمعنى أنني مجهول!! لم أفهمه أو لم أدرك ما يريد أن يعلمني. لكنه واصلَ حديثه: عندما بدأت أفهم وبدأت ذاكرتي تستوعب الأحداث، كنت كل مساء أقضيه عند أسرة مختلفة. كنت دائم التنقل من مكان إلى آخر. لم يكن هناك من هو متحمس لبقائي وقتاً طويلاً بين أطفاله، فما إن أمكث أسبوعاً لدى عائلة، حتى تبدأ بالتململ والقسوة. في أحيان كثيرة كنت أفرّ إلى من يجاورونهم، وفي أحيان أخرى كانوا يعملون على إقناع الآخرين باستضافتي مؤكدين لهم عظم الأجر والثواب الإلهي! في تلك السّن كنت صغيراً جداً فلا حول لي، و لم أكنْ أقوى على العمل والزراعة أو الرعي. لذلك لم يكن أحد متحمساً لتربيتي بين أبنائه.. اشتدّ عودي قليلاً وأنا على هذه الحال. وعرفت أن هناك أناساً في الحياةِ هم الأم والأب والإخوة والأخوات والعم والخال وأبناء العم وأبناء الخال والخالة والعمة

ووووو، ثمَّ، العشيرة والقبيلة. وبرغم أنني كنت أعيش ملاصقاً لها وقريباً منها، إلا أنني خارجها. لا يمرّ يوم إلا ولا بدّ أن أتذكّر هذا التمييز. تبّاً لهم إنني أتحدث لهجتهم، وألبس لباسهم، وأعمل مثلهم. أتناول طعامي معهم. وسحنتي هي سحنتهم، برغم كل هذا لست أنتمي إليهم!! إنهم يذكّرونني دوما بأنني إنسان سيئ. إنسان لا يستحق الحياة ! كبرتُ قليلاً وأصبحتُ أدرك وأسأل عن أبي وعن أمي. فيأتيني الجوابُ ضرباً بقسوة. صفعة على الوجه، أو رمياً بحذاء أو حجر أو جذع شجرة، حسبما هو قريب من اليد ساعة السؤال. أصبحت الضرب والغضب جواباً لسؤالي هذا بالذات، فلم أعد أسأل من أنا!! إنه أسلوب مؤذٍ جداً. منذ ذلك الحين رضيت أن أعيش هكذا، مستسلماً لسخرية أبناءِ القبيلة. ومحلَّ تهكمٍ لشيوخ العشيرة. منذ ذلك الحين وأنا لا أعرف إلا نفسي تتعاطف معي وتشفق بحالي!!

أن تكون مجهول الأبوين في مجتمع لا يرحم فهذا يعني العذاب. يعني عذاباً مستمراً ومتواصلاً، وهو ما كنت أعانيهِ دوماً، وما أكثر ما أُعتُدِيَ عليَّ و لم أجد من يحميني! أتعرّض إلى الأذى ولا يهب أحدٌ لمساعدتي. ضُربتُ و لم أجد من ينجدني. هل تعلم أن قلبي يمتلئ حقداً وغضباً على هذا النظام القبليّ. ليس لأن فيه انتماءً عائلياً، بل لأنه يفصل رابطة الدم عن الروح لكائن اسمه الإنسان؟ ولأنه نظام مليء بالنفاق، يوظف الدينَ لمصلحته ووفق

أهوائه وأهدافه. لأنه ينمّي خوف الناس من التجاوز الديني! ففي الوقت الذي يحث فيه الإسلام على رعاية اليتيم. تسحق القبيلة الضعفاء والأيتام. وفي الوقت الذي يشدّد فيه الإسلام على المساواة والعدالة وأنه لا فرق بين عربي وغير العربيّ إلا بالتقوى، يقوم في القبيلة التمييز والعنصرية بشكل صارخ واضح لا يحتاج إلى جهد لاكتشافه. أن تكون مجهول الأبوين فهذا يعني أن دمك ليس له قيمة بين أبناء القبائل وأفخاذها التي تتنافس على المجد والسؤدد! ويعني أنك لا بدّ أن تكون صاغراً حقيراً في كل مجلس تحضره. ولا بدّ أن يعلم كلٌّ من في هذا المجلس أنك مجرد رقيق! لا تنتمي إلى القبيلة أو العشيرة.

هل تعلم، عندما كَبِرْتُ وقوي عودي، وخطّ الشارب في وجهي، قرنت القوة والعنف بالتعامل والحديث مع أفراد هذه المجتمعات، لأشعر ببعض الاحترام والتقدير منهم. ومادام الحال هكذا فلأنتزع – وبالقوة – مكاناً لي بينهم. لم أتردد في ممارسة هذا السلوك القاسي منذ صغري، وبه وحده كسبت – على الأقل – الأمن وسط مجتمع أشبه بالغابة. على سبيل المثال، في أحد النهارات الحارّة جداً، كنت في أحد الحقول القصيّة أجلس في ظل شجرة طلباً للهواء والبرودة، عندما سمعت صوت رجل ينادي من ينجده. هببت لمساعدته، وعندما توقفت أمامه صمت وكأنه قد بدّل رأيه فيما طلب! لكنه عندما شاهدني غير مبالٍ به

وقد أعطيته ظهري ذاهباً وتاركاً له المكان، وهو وسط دمائه، صرخ بي قائلاً: ألم تسمعني أطلب المساعدة أيها اللقيط الأحمق! عدت إليه،.. اقتربت منه ونظرت إليه، ثم جلست وأنا أديمُ النظر نحوه. تابع صارخاً: ساعدني أيها اللعين. لم أتحرك من مكاني. عادَ إلى التوجع والأنين، واستمرّ ينادي من يساعده، إلى أن بدأ صوته يضعف من الوهن والتعب. عاد ونظر نحوي وقال: يا بُني إنني أوشك على الموت. نهضت من مكاني واقتربت منه وقلت له: ابنك! هل كانت هذه الكلمة صعبة جداً؟! هل هذه الكلمة أقسى على قلوبكم من مفرداتكم المليئة بالتعالي والصفات الدونية التي تحط من إنسانيتي؟! حملته إلى منزله. عندما اقتربت من أبنائه، أنزلته فبصق في وجهي! قلت: لا بأس إنني ابنك! ألا تذكر؟

انظر نحوي جيداً. كم تبقى لي من العمر؟ عام.. عامان.. ثلاثة.. أربعة؟ سأموت دون زوجة حلمت بها في كل الليالي. دون طفل أداعبه وألاعبه وأعلمه. إنّ مجرد التفكير في التقدم لخطبة إحدى البنات يعني موتي. يعني قتلي. هل تعلم أنني ظللت سنواتٍ طويلةً أجمع المال بعرقي وجهدي المتواصل؟ وبعد أن تمكنت من جمع ما يكفي لم أتردد في شراءِ قطعة أرض، ومن ثم قمت ببناء بيت من الحجر عليها استغرق بناؤهُ نحو واحد وأربعين شهراً من الجهد والتعب والعمل المتواصل. بعدها عاد صاحب الأرض يطلب أرضه ويهددني بالقتل! هل تعلم ما الحل الذي خرج

به زعماء وكبار القبيلة؟ أن أعطيه الجزء المتبقي من الأرض مجاناً وأن أكتفي بالبيت الذي شيدته فقط! هذه هي العدالة التي تعلمتها. وغنيٌّ عن القول أنني وافقت على هذا الحل. لقد تعلمت من هذا المجتمع أن لا أقدم أي جميل أو أي معروف، لأنني إذا قدمته سيعتقدونه تفضلاً منهم أن منحوني سبباً للاقتراب منهم! إنني آسف، لكنهم كانوا يبخلون حتى بكلمة طيبة حنونة تقال بحقي. لقد عشت وكبرت وسط مفردات من الشتم والتحقير والتصغير. إنني آسف جداً. آسف جداً! تعالى الصمت وسادت أصوات الليل. بعد فترة من الزمن نظر نحوي قائلاً: وماذا عنك؟ ألا يوجد لديك ما تقوله؟ أجبته: إنني في شوق لإخوتي. ضحك كثيراً، وسألني: أين والداك؟

قلت له: لقد توفيا قبل أن أدرك الحياة وأتمتع بصحبتهما وظلهما. ردّ وهو يهز رأسه: لا بدّ أنّ إخوتك كانوا بمنزلة الأب والأم لك، لذا أنت تفتقدهم. كنت أجيبه ودموعي تترقرق في عيني: إنهما كانا نعم الأهل والمعينين لي في الحياة. نظر نحوي وهو يقول: إنك محظوظ، فالحياة قاسية كما تعلم، وأحياناً يضن بعض الآباء على أبنائهم فما بالك بالإخوة، إن الصراع على أشده ولكن حياتك كانت جيدة. ابتسمت وطأطأت رأسي سامحاً للدموع بالنزول. وقلت: صحيح، حياتي كانت جيدة. قلتها مجيباً الرجل الغاضب دوماً. لكنه هو المسكين فعلاً!

عملة معدنية

وصلنا المدينة الساحلية. كان هناك نظام جديد لم أشاهده من قبل، حيث يوجد أناس يرتدون ملابس مميزة. علمت أن اسمهم "الشرطة" وأن مهمتهم المحافظة على أمن الناس، ومنع السرقات والاعتداء على الآخرين، وأن هذا النظام "الشرطة" يحمي الضعفاء إذا لجأوا بالشكوى إليه. وأنها ترى جميع الناس أمامها سواء. لا فرق بين كبير وصغير، أو غني وفقير، أو زعيم ووضيع! أو هكذا أخبرني صاحب القافلة. لقد قال: إن القائد والحاكم الجديد يقيم دولة ومملكة موحدة تقوم على الإسلام الذي يدعو إلى العدالة والمساواة بين الجميع بدون استثناء، وإنه يريد أن يخرج الناس من جور الظلم إلى حياة النظام والمؤسسات والتكافل. وإن الجميع لا بدّ أن يكونوا تحت مظلة كبيرة عظيمة شاسعة جداً من العدل والمساواة في الحقوق والواجبات.

في هذه المدينة الساحلية تواجدت قوات من الجيش، ويبدو أنها كانت ركيزة اقتصادية هامة لساكنها، فكثافة الجند وتبضعهم الدائم وبأعداد كبيرة جعلا المدينة في حركة تجارية نشطة وساعداها أن تخطو خطواتها الأولى نحو التطور والتقدم. كما أنها وفرت مئات الوظائف لأبنائها. واليوم أصبحت هذه القوة العسكرية جزءاً منهم حيث مضت أعوام على وجودها.

عندما وصلت القافلة بعد أربعين يوماً من السير في القفار وبين الجبال ووسط السهول، تجمّع الناس حولها للشراء أو البيع. جعلني كلُّ أنظر إلى المدينة مشدوهاً. لم أعرفها ولم أرها من قبل. إن أكبر تجمّع شاهدته كان عشرة أشخاص. كانت بيوت الطين قليلة وبيوت (الشعر) منتشرة و(العشش) المصنوعة من القصب بقبابها البيضاوية متفرقة في سهل لا توجد فيه خضرة وإنما هواء ساخن مصحوب برطوبة البحر. هذه الأجواء لم آلفها من قبل لكنني أحببتها. اقترب مني صاحب القافلة وقال: يبدو أنك مازلت تريد المواصلة، هيا أيها الفتى الكسول، هنا عمل ينتظرك.

لم أكن أتوقع أن أجد أي راحة إثر الإصابة التي في يدي. قفزت متظاهراً بالنشاط والاستعداد، لقد أخذتني السعادة كل مأخذ، وبدأت في إنزال أغراض المسافرين ومؤنهم الخفيفةَ محاولاً تجنّب الثقيل منها. كنت أجول بين الناس أستمع لحواراتهم وأحاديثهم. وأشاهد عناق الأطفال لآبائهم العائدين، وترحيب النساء بأزواجهن القادمين بعد طول غياب.

في غمرة سعادتي هذه قمت بمساعدة رجل مسن في حمل بعض الأكياس على ظهر حماره. ولمّا هممت بالانصراف استوقفني وأخرج قرشين فرنسيين. نظرت إليهما باستغراب ثم رفعت رأسي نحوه، وقبل أن أتفوّه بكلمة قال لي بحدة: هل هي قليلة؟

هيا انصرف. ذهبت مسرعاً إلى صاحب القافلة، حيث وجدته يتناول بعض الطعام في خيمة نصبت له. دخلت إليه، قلت له: لقد أعطاني أحدهم هذه. ضحك صاحب القافلة ومن معه وقال: إنها بداية مشجعة أيها الفتى. لم أفهم جوابه حيث ارتسمت على وجهي علامة استفهام، فقال: الآن لا بدّ أن تفهم أن أي عمل تقدمه لا بدّ أن تأخذ عليه أجراً. هناك في السهول بين الجبال، العمل الذي تقدمه تأخذ عليه طعاماً ومكاناً لتنام. هنا إذا قمت بعمل تأخذ عليه أجراً، هي هذه العملة المعدنية، وبهذه العملة تشتري الطعام وتجد المأوى. أومأت له برأسي لكنني لم أستسغ هذه الحياة الجديدة وانصرفت لجمع المزيد من العملات المعدنية!!

لا تفقد الفرصة

بعد يوم حافل بالعمل حلّ الظلام فتوجهت عائدا مرة أخرى نحو صاحب القافلة باحثاً عن بعض الطعام. ودخلت عليه في خيمته. وجدته ومن معه من الرجال يتسامرون. فقلت: هل أجد عندك يا عم بعض الطعام؟ نظر نحوي وقال: اقترب أيها الفتى. اقتربت منه فقال: إنّ مهمتي تنحصر في إيصالك إلى هنا، وعليك من اليوم أن تبحث عن عمل، وأن لا تستجدي أحداً، والآن هيا اقترب وتناول الطعام. نظرت إليه وقلت: كنت أعتقد أن مسيرتنا لأكثر من شهر قد زرعت بيننا شيئاً من الألفة والصداقة، وغادرت خيمته. لقد عشت وسط جبال شاهقة شامخة عزيزاً وبنفس أبيّة، كيف أتناول طعاماً قُدِّم لي لأنني استجديته.

بتُ ليلتي تحت إحدى الأشجار أعاني البعوضَ والحرارة والتراب. استيقظت في الصباح على أصوات الناس والحركة التي دبّت في السوق. وبدأت رحلة السؤال عن موقع الجيش على أمل أن أجد عملاً مناسباً لديهم. وبينما أنا أسأل ولا أجد جواباً، قابلني رجل وقال: أيها الفتى لقد سمعت صباح اليوم أن صاحب القافلة يبحث عنك. اذهب إليه فهو يريدك. نظرت إليه وانصرفت وكأنني لم أسمعه. مضى نهاري بطيئاً متهالكاً سيراً وسط السوق والبيوت ذهاباً وإياباً بلا فائدة، لذلك وقبل حلول الظلام كان

التعب يجتاحني تماما، و لم أملك أمام هذا الواقع المرهق إلا التنازل عن كبريائي المجروحة. فقررت العودة إلى صاحب القافلة. دخلت خيمته وسارعت بقولي: هناك من قال لي إنك تبحث عني، فأجابني: كان هذا في الصباح وقد قيل لي إنك لم تُعر ذلك اهتماماً، وأظنني قد نسيت ماذا كنت أريدك فيه! كان من أهمّ الدروس التي تعلمتها في مجتمع قاسٍ لا يرحم، هو معرفة قدرتك على مواجهة الأحداث، ولا مجال هنا لتفقد أي فرصة قد تساعدك على الصمود قوياً أمام الموت الذي يتربّص بك في كل اتجاه. لذلك سارعت بإجابته قائلاً: حسناً أنا لست في عجلة ويمكن لي أن أنتظر حتى تتذكر. ضجت الخيمة بالضحك. قال وهو يضحك: اذهب للنوم وفي الصباح سأنظر في أمرك.

وبالفعل أخذني في صباح ذلك اليوم إلى قائد إحدى السرايا العسكرية - خارج المدينة - الذي نظر إليّ مليّاً، ثم قال: إنه صغير لا يمكن أن أسمح له بالتجنيد في هذه السن، فقال صاحب القافلة: إذن سيموت، فلا أحد هنا سيشفق عليه. إنه صبور على العمل ولو لم يكن كذلك لما أحضرته. وليثبت صحة كلامه ضرب على كتفي. فكانت الضربة قاسية جداً على يدي المصابة. ضحكت وأنا أرغب بالصراخ من شدة الألم. وقال بحماس وهو يهز كتفيّ هزاً: لقد جرّبته في هذا نحو شهر. فقال القائد: حسناً سألحقه كجندي فنحن لا نستطيع إغضابك. كنت أثناء

حوارهما أتصبّب عرقاً من ألم يدي. وعند خروجنا نظر نحوي فشاهد دموعي معلقة بعينيّ، وأنا ممسك بيدي. ضرب على رأسه وقال: تبّاً لي ماذا فعلت؟! واقترب مني بعطف شديد لم أعهده منه من قبل وهو يقول: اتركها يا بُني. نظرت نحوه وأنا أصابر ألم معصمي: من هي يا عم التي أتركها؟ قال: دموعك. اتركها تمضي لا تحبسها أبداً. غير حقيقي أن الرجال لا يبكون. إن أرحم الرجال. أرقّ الرجال. أكرم الرجال. أشجع الرجال يبكون. عندها أجهشت بالبكاء، وتسرّبت على الأثر دموع غزيرة من عينيّ.

عندما كنت أودّع صاحب القافلة قال: عندما تكبَر أكثر ستغيّر قلبك. مثلهم تماماً!!.

لقد كنت إنساناً محظوظاً فقد كانت الأمور فيما بعد مواتية، حيث أعلن عن إنشاء وزارة مستقلة للجيش ومن ثم توالت خطوات بناء القوات العسكرية لتحمي الوطن الذي تشكل، وليدافع عن ترابه، وكانت عجلة التطوير والتخطيط حثيثة ومستمرة. لهذا ارتفعت الرواتب والعلاوات والمعاشات لكافة أفراد الجيش وكنت واحداً ممن شملتهم هذه القرارات. ونظراً لمصروفي القليل جداً أصبحت أدخر جزءاً كبيراً مما أتقاضاه من أجر. وخلال بضعة أعوام كنت على نحو مختلف، حيث زادتني الجندية صلابة وقوة وانتظاماً، وأصبحت أكثر إدراكاً للتعامل مع

المجتمع والأصدقاء وزملاء العمل.

مضت سنوات ولكنني لم أنس أبداً كلمات صاحب القافلة التي كانت دوماً تتراقص أمامي: عندما تكبر أكثر ستغيّر قلبك مثلهم تماماً، إنك من أبناء القبائل، والذئب يعود ذئباً حتى وإن سقيته لبن الشاة! كنت أقول دوماً: لن أملّ أبداً من محاولة أن أكون إنساناً صالحاً!

العدالة

"تذكّر دوماً.. لم يكن ثأراً وانتقاماً"

لعل هذه الظلمة وهذا الهدوء المميت يساعداني في التفكير والاختلاء بنفسي. فحظيرة الجند مليئة دوماً بالأصوات والضجيج. أما هنا فلا أسمع سوى أصوات الحشرات التي تعوّدت سماعها دوماً ولا أشاهد سوى ضوء هذا القمر الحزين الوحيد. أعوام مضت وأنا مثله تماماً، فلا أسرة لديّ وأخواي المتبقيان في هذه الحياة مشغولان بأمورهما وشؤونهما، والحنين إلى بلادي وأرضي جارف وعنيف. لقد مرّ وقت طويل منذ أن وصلت إلى هنا. كنت صغيراً هزيل الجسم مأسوراً للخوف. لعلي اليوم أكثر قوة وأكثر صلابة. كان هذا المساء غريباً ودافئاً. كنت خلاله أقوم بواجبي العسكري في الحراسة الليلية. ولعل موقع هذا المكان البعيد عن المعسكر ساعد في تميزه بالهدوء الذي يحيط به. كنت أحمل بندقيتي، وأقوم بجولات تفقدية ذهاباً وعودة. وكان القمر – وفياً – في موعده الذي لم يخلفه قطّ مكتملاً ينثر ضوءاً أبيض على الأرجاء، فيبدّد العتمة بخجل، وعلى استحياء. أما الهواء فقد كان يشارك القمر تمرده على المكان. هواء بارد عليل ذو نسمات مرهفة، يداعب بها وجداني وروحي، لعلهما يشاركان في العمل لتعويضي خسارتي الوقت الجميل مع فتاة ساحرة المحيا أداعب

جدائلها وألمس ثغرها الفتّان. أداعبها ضمّاً وشمّاً وتقبيلاً! اتكأت على جذع شجرة عند سور المعسكر. أدركني النعاس وذهبت في إغفاءة قصيرة ومضيت في أحلامي، بل أشواقي وأمنياتي. رأيت الورود البيضاء والحمراء والصفراء. نعم ورود بيضاء وصفراء، وشاهدت بستاني، وزرعاً طالما سقيته وحففته برعايتي. رأيت أبي وهو يشير لشقيقي عليّ ويبتسم. كنت أشعر أنني أبادله الابتسامة، لكنها لحظات جميلة وقصيرة جداً، فقد استيقظت على صوت الرقيب ووعيده وتهديده، حيث اعتبر إغفاءتي نوماً أثناء الحراسة. وفي العرف العسكري يعدّ هذا إهمالاً جسيماً في أداء الواجب. نهضت سريعاً، وكنت أدرك حجم الخطأ الذي ارتكبته، لكن تفكيري المتواصل في هذا الحلم القصير منعني من أن أبدي أي عذر أو استرحام للرقيب، مما جعله يزداد غضباً ويأمر بحبسي مدة يومين. خلال هذين اليومين لم يكن يجول في تفكيري إلا تفسير هذا الحلم وماذا يعني؟ هل حان وقت عودتي إلى دياري؟ أم تراه الحنين لا أكثر؟ انتهت فترة توقيفي فتوجهت إلى حظيرة الجند حيث مكان نومي. جلست على سريري فاقترب مني شخص وقال: أخيراً أطلقوا سراحك! نظرت إليه وقلت: نعم. قال: حسناً كنت خلال اليومين الماضيين أنام على سريرك فابتسمت، وقلت له: لا يوجد عندي مانع إن كنت تريد أن تواصل النوم عليه، فضحك الجميع. لم يكن سوى سرير تغطيه أقمشة بالية

ولا يوجد عليه أي فرش أو (إسفنجة) أو ما شابه ذلك. قال: حقيقة إنني أحمل لك رسالة من قريب لك. من شقيقك عليّ، فصعقت وأصابني الذهول. تابع الرجل قائلاً: إن أخبارك الطيبة كانت تصله وهو يبلغك السلام ويقول لك إنه سيسير إليك في منتصف الشهر القادم من أجل أن يلتحق بالجندية معك. فتغيّرت ملامح وجهي إلى السعادة والفرح، وبدأت أفكر من فوري في تهيئة المسكن الملائم الذي أستقبل فيه شقيقي، حيث لا يمكن أن يظل مقيماً في هذه الحظيرة في الوقت الذي سنظل فيه نتحدث لساعات طويلة يومياً لأسمع أخباره وأسأله عن الأهل والبلاد. فحظيرة الجند ليست المكان الملائم، لذلك قررت أن أستأجر منزلاً لاستقبال أخي تحفظ فيه خصوصيتنا واستقلاليتنا. حقيقة لم يكن بيتاً بما تعنيه الكلمة فقد كان عبارةً عن غرفة ودورة مياه ومطبخٍ صغيرٍ جداً.

خدمة

دبّ النشاط في دمي وكل كياني، وما هي إلا لحظات حتى كنت أقف أمام الرقيب الذي ما إن شاهدني حتى قال لي: ماذا تريد أيها النائم؟ فتقدمت نحوه مبتسماً وقلت: لقد نلت جزاء تلك النومة لا أعادها الله، فضحك وقال: إذن ماذا تريد؟ فقلت له: إنني جئت طالباً منك خدمة لأخيك الصغير، فنظر إليّ وقال: حسناً ما هي؟ فقلت: إن شقيقي سيصل بعد شهر وأريده أن يلتحق معي بِهذه السرية. ضحك وقال: هل تعتقد أيها الشاب أنني القائد لهؤلاء الجند؟! أنا مجرد رقيب أقوم بواجبي في عمل محدد جداً. قلت: أعلم أيها الرقيب، لكننا نعرف جميعاً أنك تقوم بعمل كبار القادة، وأنهم لا يرفضون لك طلباً مهما كان صعباً، لأنهم يعلمون بحنكتك العسكرية وانضباطك، ومن أجل هذا أقصدك. قام من خلف مكتبه، وكأن كلماتي قد رفعت من معنوياته كثيراً، وقال: حسناً سأحاول. متى يصل شقيقك؟ أجبته: في منتصف الشهر القادم. فقال: إذاً تعال معي، وتوجهنا نحو مقر القيادة العسكرية في المنطقة، حيث لم يعد التحاق الجند أو العاملين في القطاعات العسكرية كما كان في السابق، حيث يمكن لقائد السريّة الآن تسجيل من يشاء وفصل من يشاء. دلف الرقيب وهو يصحبني مقرّ القيادة. ألقى الرقيب التحية العسكرية

وتبعته في ذلك. لقد توقف قائدي المباشر أكثر من مرة ليلقي التحية العسكرية لأناس أرفع منه رتبة. ضحكت وقلت: أيها الرقيب، هل تعلم أنها أول مرة أشاهدك تشبهنا. نظر نحوي وقال: أعلم ذلك. انعطفنا نحو مكتب، وقبل أن ندلف إليه شدّ الرقيب حزامه وهيّأ نفسه وأشار إلي أن أفعل مثله وهمس لي: إننا بصدد مقابلة أحد كبار القادة العسكريين في المنطقة. حقيقة، بدأت أرتجف ويتصبّب العرق من جبيني.

عندما أصبحنا أمام طاولة المكتب ألقينا التحية العسكرية. حيث كان يجلس خلف ذلك المكتب ضابط بنجمة واحدة، نظر إلينا ثم ابتسم إذ عرف الرقيب، وسأله: ماذا تريد؟ فردّ: سيدي الضابط. إنني أقدم إليك أحد أبرز الجند وواحداً من الذين هم أكثر نشاطاً. سيصل أخوه بعد شهر. ويلتمس أن نلحقه جندياً معه.

نظر الضابط نحوي وقال: لماذا معك؟ كانت قواي تنهار، فلم أفهم سؤاله فما بالك بإجابته! كان يبدو لي أنه على درجة عالية من التعليم والتدريب والانضباط والجندية الحقّة. لم ينتظر إجابتي حيث تابع قائلاً: هل تعلم أن هناك مجالات جديدة وأن فرصة أخيك ستكون أفضل منك ، أنا عموماً لا مانع عندي سنلحقه معك جندياً، ولكن ليس في سريّة المشاة نفسها لأنها مكتفية والرقيب يعلم ذلك. سنعطي أخاك فرصة أفضل، حيث توجد الآن السرايا الآلية وأقسام المركبات، وحاملات الجند ونحوها

من التكنولوجيا الحديثة! امتلأت عيناي بالدموع وعجزت عن الحديث والشكر. بعدها بلحظات نهض الرقيب وشكر الضابط واستأذنه في الانصراف، لكن الضابط قال: أيها الرقيب انتظر، لا تنصرف فلديّ ما أحدثك فيه، وخرج الضابط مغادراً مكتبه. عندها بدا القلق على وجه الرقيب، وبدا ذلك الوحش كحمل وديع. وذلك الرقيب الذي يملأ الميدان ضجيجاً ومهابة في قلوبنا ذا قلب حنون. لقد ظهر في تلك اللحظةِ على حقيقته الإنسانية المجردة.

هي أن الإنسان ضعيف جداً مهما علا وكبر وتغطرس. أو مهما حاول أن يغطي وجهه الحنون بغطاء من القسوة والتحدي. قلت له: أيها الرقيب، سأنتظرك خارج المكتب فهزّ رأسه بالموافقة. بدون أن يتكلم. وما هي إلا لحظات حتى شاهدت الضابط عائداً إلى مكتبه.. فترة من الزمن حسبتها دهراً من طول دقائقها. كنت قلقاً على ما يلقى قائدي الآن.

كنت ألومُ نفسي لأنني أنا من جاء به إلى القيادة.. ليتني لم أتسبب في كل هذا. خرج فتوجهت نحوه مسرعاً: ماذا حدث أيها الرقيب؟ نظر إليّ وقبّلني بين عينيّ وقال: لم أعد رقيباً أيها الشاب، فصعقت ذهولاً، لكنه واصل حديثه قائلاً: لقد صدر قرار ترقيتي. بعد قوله بقيتُ فترة صامتاً لم أفهم معنى الترقية. إنه مصطلح غريب على ذهني بعض الشيء، لكنني سرعان ما

ضحكت لأن الفرحة كانت تتطاير من عيني الرقيب. قلت له: إن هذا يشجعني أن أطلبَ منك إجازة لمدة خمسة أيام لتجهيز المسكن الجديد لي ولشقيقي. هزَّ رأسه بالموافقة، والفرحة – فعلا – كانت تتطاير من عينيه.

الخبر الحزين

في هذا الصباح بينما مئات من الجند مصطفون في طابور الصباح اليومي، دخلت سيارة جيب غير مألوفة المعسكر. وعلم الجميع أنها سيارة تابعة لشرطة المدينة. لكن ماذا وراء قدومها في مثل هذا الوقت من الصباح الباكر؟ وما هو الأمر الهام الذي دعاها للحضور؟ ترجل أحدهم منها وتوجه من فوره إلى مكتب القائد، وبعد عشر دقائق عاد إلى سيارته، ورحلت السيارة بينما المراسم العسكرية مستمرة. داخلني إحساسٌ قويٌّ بأنّ لي علاقة بالموضوع الذي جاءت السيارةُ من أجله. بدأ يساورني الخوف، إلا أنني التفت يميناً ويساراً فوجدت مئات من الجند لم يعيروا الأمر اهتماماً فآثرتُ الانسجامَ بالمحيطِ وأبعدتُ نفسي عن التفكير في الأمر.

بعد ظهر ذلك اليوم تم استدعائي من قبل قائدي المباشر الذي صافحني عند دخولي مكتبه، وأخذني من فوره إلى مكتب القائد الأعلى الذي ما إن رآني حتى نهض وسلم عليّ وأجلسني. وهنا قفز ذهني إلى قدوم تلك السيارة في الصباح، وكأنّ عقلي قد انفصل كليّاً عمّا أنا فيه، وكأنهُ ينتشي بصدق توقعاته. أيقظتني سؤالُ القائد: كيف حالك يا بني؟ هل أنت بخير؟ قلت: نعم، ولله الحمد. وأخذتُ أستجمعُ نفسي لأستطيع استيعاب ما يجري

من حفاوةٍ وترحيبٍ بي. لحظات قصيرة وجلس أمامي ذلك القائد وكأنه يرغب في عدم خروجي بأي استنتاج. قال: إننا نعلم أنك كنت خلال الأيام الماضية منشغلاً بترتيب منزل جديد لتنتقل إليه، وأنك في انتظار حضور شقيقك. ازدادت علامات الدهشة على وجهي. ورحت أسأل نفسي: هل صدر قرار يمنع مثل هذه الخطوة؟ لماذا لم يخبرني الرقيب بهذا إذن؟ نعم سيدي . قلتها بعد لحظةِ صمت بدت وكأنها انتظارٌ لجوابي هذا. أو كأنه قد عرف بالهذيان الذهني الذي اجتاحني. أومأ القائد برأسه مؤيداً كلامي. وما إن رفعتُ نظري نحوه حتى أدركتُ أنّ فيه حزن شديد. نظر في عينيّ بشكلٍ مباشر. كانت عيناه قاسيتين كعينيّ صقر وثبَ على فريسته. قال: إن جميع قادتك ومَن عملت معهم يمدحون أداءك وعملك. إنك صلب، ومن بلاد صبورة. بدأت ملامح وجهي تتجهّم. إنه يمدحني، لكنه في الحقيقة يستعدّ لقتلي. لقد تأكّد لي الألم في عينيه. قال مواصلاً حديثه: أريد أن أنقل إليك خبراً مؤسفاً يتعلق بشقيقك. لم تتغيّر ملامح وجهي، فلتوّها اكتملت هذه الملامح الحزينة.. كما يكتمل البدر في ليالي منتصف الشهر.. كما هي الليلة الرابعة عشرة.. وهي موعد وصول شقيقي كان الشيء الوحيد الذي رغبته من هذا القائد، هو الصمت، أن يصمت، فلا يكمل حديثه الذي ينغرسُ سكاكيناً في جسدي الذي انهار.. لكنه لن يكون قائداً صلباً قوياً

إذا لم يكمل مهمته العنيفة. واصل حديثه: لقد تم إبلاغنا رسمياً صباح اليوم أنه تم العثور على أخيك مقتولاً. لقد امتدت إليه يد ظالمة حيث اعترض طريقه مجرم بدماء باردة. قتل أخاك غيلة وهو نائم، وتتم الآن عملية بحث واسعة للقبض عليه.

الصدمة والاختلاف

ساد الصمت المكان. لم أستوعب الصدمة، وكأنني لا أريد فهم ما سمعت. وربما كنت أريده أن يكمل حديثه. لكن الحديثَ قد انتهى. هل قال قتل؟ ألم يقل: ربما يكون قد قتل..؟ قال إنه أخي. أم تراه قال إنه يشتبه بأنه أخي؟ كنت أبحث كنت أبحث عن مفر. عن أمل. عن النجاة. وعن نفي ما كنت قد فهمت.. لن تعرفوا قيمة ما أتحدث عنه، إلا إذا عرفتم أيّ خسارة أخسرها.. كنت أبحث عن أي شيءٍ غلطٍ في* الكلام الذي سمعت. شيء من الغموض. التشكيك. أو الاحتمال. لكن الكلام كان واضحاً. مباشراً. جازماً. كان موتاً، بلا أي أمل في النجاة. نهضت، فأمسك معصمي يساعدني في النهوض. وكأنني استحلتُ هرِماً في لحظة.

فارقٌ زمنيّ مؤلم: بين وعد باللقاء، وتلاشٍ لأيّ وعدٍ فيه. أطلب العون من الربّ. كنت أبحث في ملكوته عن الأمل، فبعثرته الكلمات. عوّدتني الحياةُ الصبر. أنا من بلاد صبورة. لكنني أموت الآن. أموت حيّاً. لم تكن الدموع إلا تعبيراً عفوياً لا لزوم له. لقد تجاوز الألمُ الدموع، وعدت إلى المعسكر حيث الجموع تشاهدني أغادر غرفة القيادة مترنحاً. توقفت خارجها أنظر إليهم. كلهم يوجهون نظرهم نحوي. جميعهم يعرفون الخبر. لقد انتشر

سريعا، أثناء جلوسي مع القائد. دخلتُ الحظيرة. دخلتُ فتلقفتني الحقيقة، وشرعت في البكاء. تلقفني الأصدقاء بأحضانهم مواسين مصابي، وامتلأت الحظيرة. يتعاطفون معي رغم أني جندي نكرةٌ غير معروف. لكنّ تعاطفهم لأنهم – ومن خلال العشرة – كانوا قد أدركوا أنني وأخي ضحيتان للجريمة وللفوضى التي كانت سائدة في تلك الأماكن.. كنت أفكر في مثل هذا، وكنت متأكداً من أنه ليس لدى القبيلة ونظامها الطبقي الهمة أو الرغبة في البحث عن أسباب قتل شقيقي، ذلك لأنه – وببساطة – إنسان بسيط جداً. إنما الذي حدث في المعسكر كان مختلفاً في كلّ معانيهِ وأشكاله، فالجميع جاء يواسيني. إنهم من قبائل شتى، قبائل كانت تشتعل فيما بينها الحروب. وكانت تسخر من مصائب بعضها. وتضحك لأحزان بعضها. الأحقاد والعصبية القبلية كانت داءً سرطانياً خبيثاً لا أمل في استئصاله. اليوم نجتمع نحن شباب القبائل كقلب واحد ونفس وروح واحدة. تظللنا السارية التي تتوسط ميدان المعسكر ويرفرف عليها علم البلاد الواحدة. لقد أعادت جريمة مقتل أخي صوراً وأحداثاً لجرائم كثيرة حدثت في الماضي والماضي القريب. لم يجد ضحاياها تعاطفاً أو حراكاً من أحد، لأنهم كانوا ضعفاء حتى في أمر الجهر بالشكوى. لم تمنع القبيلة مثل هذه الأسبابَ والآلامَ من قبل، ولم يكن متوقعاً يوماً منها أن تؤدي أي جميل لإنسانية الإنسان.

التغير

القبيلة تاريخ مضى أمام دولة المؤسسات والنظام والمساواة. القبيلة تلفظ أنفاسها الأخيرة الآن كنظام اجتماعيٍّ أو طبقي وعنصري. عرف الناس – وأنا واحد منهم – أنها تكرّس العلوّ لزعمائها وأنها لم تكن تأخذ على عاتقها أي تعاطف مع الإنسان البسيط في ذلك الزمن. كم كانت القبيلة مجرمة بحق الإنسان المسكين. كم كانت القبيلة مجرمة بحق الأُخُوّة والدم الواحد. انقضت ثلاثة أشهر وأنا أؤدي عملي وفي صدري أسى كبير وحزن عميق على فقدي لأخي الذي انتظرته طويلاً. لم تكن خسارتي شقيقي تمثل حالة فقد الأخ لأخيه وحسب. بل تمثل فقد القلب الوحيد الذي أعتقد أنه يمكنني أن ألوذ به وأرتاح إليه. تمثل خسارة الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يكون صادقاً ومخلصاً في نقل سيرة وأخبار والدي وأهلي إليّ. إنّ فقدي لأخي يعني أن جزءاً كبيراً وكبيراً جداً من حياتي سيظل خفياً عن ذاكرتي وعقلي. وستظل قصص كثيرة مغيّبة عني. بل إنها تعني خسارتي لنكهة اللقاء ولمّ شمل العائلة الذي انتظرته سنوات طويلة. وقبل هذا وبعده فإن الحياة هكذا ستبدو أقسى وأعنف، وبلا شك كان العكسُ سيكون النقيض والحلم.

في أحد المساءات دلف قائد المعسكر علينا وقال : إنني أحمل إليك

خبراً ساراً. نهضت وجميع الجند الآخرين. لم يكن هناك أي خبر سيسعدني بعد الذي كان. قال: لقد تم القبض على المجرم الذي ارتكب جريمة قتل أخيك وآخرين من الأبرياء، وسيحاكم أمام القضاء قريباً.

هززت رأسي مبتسماً وكأن هذا الموضوع لا يعنيني، لكن جميع مَن في المعسكر كانوا سعداء، يهنئونني. لم أكن أعلم أن الجميع سعيد لأن في ذلك مؤشراً قوياً على تدشين عهد جديد من حياة ملؤها العدل والمساواة، أو على الأقل كان هذا ما يأمله الجميع ويرجونه، فلتوّها ظهرت بلاد على خريطة الكون. الآمال كبيرة في أن يسود العدل والأمان ربوع تلك البلاد التي طالما عانت من الحروب العشائرية والتشتت واللاقانون. بل كان يجري الاقتتالُ في القبيلة الواحدة وبين رجالها. بل حتى داخل الأسرة الواحدة . لطالما حسمت خلافات بقوة القوي، لا بقوة الحقيقة التي بيده.. أو الدليل الذي يحمله.. إنما بسطوته وتجبره وقسوته.. والآن الجميع كان فرحاً أن شخصاً مثلي ستقف العدالة ببابه.. وتحاول أن ترضي إنسانيته وتداوي جرحه بإقامة المساواة وحياة النظام.. التي كان الجميع مشتاقاً إليها ويستجديها.

المجتمع الجديد الذي بدأ يتشكل كان يشير ويؤكّد على أن حياة التشرّد والجهل لم تكن في بقعة دون أخرى، بل كانت تعمّ كافة الأرجاء بلا استثناء، لذلك كان الالتفاف حول العهد الجديد

أكثر حماساً وانسجاماً حيث تلاقت مصالح الفرد في مجتمع آمن ورخاء مستمر مع الكل، فتشكل هذا النسيج الفريد من الوحدة الوطنية التي قلما يجود بها الزمن. لذلك لم يكن تعاطف الجند وقادتهم معي نابعاً من مقومات عصبية أو اعتبارات إقليمية أو انتماءات قبلية. كان هذا مؤشراً لتعاطف المجتمع مع بعضه البعض. وإلى التعاون والتلاحم والتعاضد الذي حمل مؤشرات توديع حياة الفئوية والعشائرية والتشرد والتجبر. هو الآن الجدار الأول لحماية وحدتنا الوطنية بكل أبعادها.

القصاص

ساءت الأحوال الجوية فألغي كثير من الواجبات العسكرية. كانت الأتربة تغطي الأرجاء. صيف هذا العام كان حارّاً وقاسياً جداً والرطوبة عالية. كنا – أنا ورفاقي – نستمتع بالجلوس وتبادل الأحاديث حين دلف أحد القادة العسكريين وجعل يجول بنظره فيما بين الوجوه كأنه يبحث عن شيء.. وما إن وقعت نظراته عليّ أشار إليّ بالحضور. توقفت أمامه فأديت التحية العسكرية. صافحني وقال: إن تنفيذ حكم القضاء في المجرم الذي قتل شقيقك سينفذ بعد ظهر الغد. يا إلهي! إن مثلي مئات بل ألوف في أزمان مضت سرقت منهم أجمل لحظات الحياة على يد مجرمين لم يجدوا العقاب أو الردع! إنني محظوظٌ إذ أن عجلة العدل قد بدأت تدور بسرعة قياسية في تلك الربوع التي كانت معقلاً من معاقل التخلف والجهل والإجرام بسبب نظامها المفلس المعتمد على الحميّة والعصبية. فلا يمكن أن تقيم العدل والمساواة فيما مضى على شخص ذي منصب أو جاه. كان الضعفاء والمساكين يعيشون وأقدارهم بأيدي الغضبِ والسطوة. تنتهي الحياة بمجرد غضب شيخ القبيلة أو طردهم منها.

في اليوم التالي توجهنا إلى موقع تنفيذ حكم القضاء. شاهدت الناس وقد تجمعوا في الساحة الكبرى حيث سيق إليها المجرم مقيّداً.

وشاهدت لأول مرة ذوي الضحايا الآخرين الذين يشاركونني الأسى والراحةَ بآن بالقرب من موقع تنفيذ حكم الإعدام.

وسط الدائرة البشرية التي تحيط المركز، وكنت في تلك اللحظات أجول بنظراتي بين الجموع وكثافة الناس والجند. هنا في وسط الجموع سيفقد رجل حياته بعد لحظات. ومن هنا يراد أن توجه رسائل متوالية: إن الجريمة ستُضرَب بعنف أشد، وإن النظام الآن هو البديل عن الفوضى.، لكنني لا أعلم إن كانت إحدى تلك الرسائل تحاول الإجابة عن سبب إقدام المجرم على ارتكابه جريمته، أو بعمومية: عن دوافع مجرمي تلك الحقبة، وأسباب جرائمهم؟

لم تُقطع أفكاري إلا عندما شعرت بتقدم أحد القادة العسكريين نحوي قائلاً: هل تريد أن تنفذ الحكم القضائي بقتل المجرم بنفسك؟ نظرت إليه وقد تسرّبت إلى كياني قشعريرة جارفة، شعرت معها أن مفاصلي قد تيبّست! جعلت أنظر إليه وكأنني لم أستوعب كلماته الواضحة، أو أنني لا أريد فهمها. ردّ رقيب من سريّتي ومعه مجموعة من زملائي: نعم نعم إنها رغبته، فهزّ القائد العسكري كتفي مبتسماً. نظرت نحو الرقيب وزملائي نظرة استغراب وخوف. وشاهدت القائد العسكري وهو في طريقه نحو أحد المسؤولين. قال له: إن ذلك الشاب واحد من ذوي الضحايا الذين فجعوا بجرم هذا المجرم ويرغب أن يقوم بتنفيذ الحكم أصالة عن نفسه ونيابة عن الآخرين. نظر إليّ

ذلك المسؤول قائلاً: إن تنفيذ الحكم من اختصاصنا وما عليه وغيره إلا أن يتأكدوا أننا أحرص على إقامة النظام والعدل على الجميع وأن العدالة ستأخذ مجراها، وحرصنا هذا حفاظاً على الأرواح والممتلكات. فقال القائد: نعم لكن هذا الشاب واحد من رجالكم فهو عسكري ومتمرس، أضف إلى ذلك أن هذا المجرم قد أوقع القتل بآخرين وقطع الطريق. فهي ليست جريمة واحدة وإنما جرائم عديدة. فمن شأن تمكين واحد من ذوي الضحايا من تنفيذ الحكم أن يخفف عنهم ما أصابهم من ألم الفراق والحزن، ثم لا يخفى عليكم أن هؤلاء من قبائل مازالت دماؤها ساخنة، والثأر متأصل فيها، ومن شأن لفتة مثل هذه أن تطفئ هذه الحرارة. ثم قد ينظر أفراد القبيلة لمثل هذا الشاب نظرة استخفاف واستهجان كونه لم يثأر لقتل أخيه بنفسه. لم يكن القائد العسكري مخطئاً أبداً في هذا التحليل، بل إن من ردّ عليه بموافقتي على تنفيذ الحكم إنما هم زملائي المتحمسون، والذين يرون أن هذه من البديهيات، فهذا ما يسمى في العرف القَبليّ الأخذ بالثأر. بعد التفكير للحظات قال ذلك المسؤول: حسناً سنوكله بالتنفيذ وسيكون معه الشخص المسؤول عن مثل هذا. جاء القائد من فوره يخبرني أنني وآخر سننفذ حكم القتل، وناولني رصاصتين وبندقية. حانت ساعة الإعدام. كنت أتصبّب عرقاً، والخوف ينهشني، لا لكوني لا أجيد استخدام

السلاح، فقد كنت ماهراً جداً في التصويب والرمي ويشهد لي بذلك قادتي. إنما لأنني أدركت أن هناك فارقاً كبيراً وهائلاً بين التصويب نحو دريئةٍ في الفضاء المتسع وبين التصويب نحو إنسان يشاركك الحياة ويتنفس فيها ويستنشق هواءها. وإنك بضغطة الزناد ستنهي هذه الحياة إلى الأبد! تقدمت بخطوات مهزوزة مترددة، وعيون الجموع ترصد كل حركة أتحركها وكلّ خطوة أخطوها. اقتربت من المجرم ونظرت إليه فترة ثم سألته قائلاً: لماذا قتلته؟ كنت أنتظره.. كنت في شوق إليه. رفع المجرم رأسه وصوّب نظراته القاسية اليائسة الغاضبة، ثم عاد ينظر إلى الجدار الذي أمامه. كنت أنتظر عند رأسه أن يعود ليقول أي شيء. أن يبدي أسفاً ما. أن يقول إنني كنت أبحث عن طعام. أو كنت جائعاً. أن يقول قد أخطأت. لكنه لم يقل شيئاً واكتفى بنظرات سيودّع بها الحياة. حقيقة إنني كنت أتمنى لو أنه قال أي شيء، لأعلن تسامحي وعفوي. وهذا لن ينجيه من القتل لأن الأمر لا يتعلق بي وحدي. إنما كي أنجو أنا من هذا الموقف الرهيب. لكنه لم ينبس ببنت شفة. شعرت بيدي الرجل الأسمر المسؤول عن تنفيذ أحكام القتل يضعها على كتفي ويهمس في أذني: صوّب بندقيتك فقط أيها الفتى. ووقف إلى جانبي.. وأشار لي أن أرفعها نحو المجرم. صوّبت البندقية كما أشار. أطلقَ رصاصتين من بندقيته فأنهى حياة ذلك الإنسان، وأنقذني من ترددي ومن

خوفي. احتضنته لأعبّر له عن شكري، فهمس في أذني: كم سرك بسيط وثمين أيها الشاب! كنت أقرأ في عينيك أنك لست قاتلاً. إنني أجيد قراءة العيون في مثل هذه المواقف. فعلاً إن لغة العيون في مثل هذا الموقف لا يمكن أن تتكرر، وهي واضحة وفاضحة. ففي هذا حدٌّ بين الحياة والموت، وفاصل رقيق بين عالمين أحدهما نعيشه، أما الآخر فلا نعلمه. توجهتُ نحو رفاقي فناداني الرجل الأسمر قائلاً: أيها القبلي، تذكر — دوماً — ما من ثأر أو انتقام هنا، إنها العدالة تتحقق! هززت رأسي أوافقه قوله وأنا أمسح بمعصمي دموعي. أما لماذا الدموع؟ فلا أعلم، لكنني أتمنى فعلاً أن يكون ما حدث في تلك الساحة هو العدل، وإن كنت أشك أن في إنهاء حياة إنسان - مهما كانت الأسباب - أدنى حدود العدالة، وبخاصة في مجتمع مضطرب حديث التكوّن و لم يعرف من قبل البناء المؤسساتي والتنظيم والقانون.

ماذا وجدت؟!

ذرفتْ عيناي بالأمسِ الظلمَ والإهانة!

الوحدة.. الوحدة.. الصمت.. الصمت.. هما رفيقاي الدائمان منذ سنوات. واليوم تزداد وطأة الانطواء. هل هو الحزن لموت شقيقي؟ أم تراه الشوق والحنين نحو الديار والأرض. في ذهني أن الأمور لا تبقى كما هي عليه. بل إن الأحوال والظروف تتغيّر. كان هذا ماثلاً أمام عيني، وأدعو أن يستمر هذا التغيّر الذي تشهده الحياة من حولي كما هو الحال، لأنني أعتبره تحوّلا للأفضل ونحو مستقبل جميل. قبل عقدين من الزمان، لم تكن عند الكثير أيّ رغبة في أن يسود أي تبدل في تلك المناطق، لذلك كنت متأكداً أن تحوّلاً ما يحدث وأن عجلة تغيير المجتمع تدور. إنها جليّة وملموسة تماماً. موجة صغيرة من الأشواق تملّكتني. سرعان ما تحولت إلى إعصار من الآمال والحنين لتلك الديار والبلاد، عقدت العزم على العودة إلى الأرض لزراعتها والعودة لرعي الأغنام وتربية النحل بين تلك الجبال، لأستظلَّ في نعيمها في ذلك الوادي. العودة إلى الأرض التي فتحت عيني على عظمة جبالها ووعورتها. وربما هي العودة للتحدي اليومي. العودة إلى الحياة. إلى السهول الوعرة والمرتفعات الشاهقة والتعب اليومي والكدح المتواصل منذ أنسام الصباح الأولى وحتى غروب الشمس. إنه

حنين إلى العمل في حظيرة مليئة برائحة التبن والقمح والقصب، وإلى أصوات زقزقة العصافير ونباح كلب الحراسة وأصوات الرياح وهي تهز الأشجار. حنين العودة إلى كل الأشياء الجميلة المتعبة التي هجرتها مرغماً، وغادرتها مكرهاً وتركتها حزيناً. إنه الحنين إلى الماضي وإلى الطفولة.

لقد تحول المزارع المسالم إلى رجل عسكري عنيف يوجه سلاحه إلى صدر إنسان أعزل، مهما كانت الأسباب والبراهين، فلم أستطع أن أستوعب كيف تنهي حياة إنسان آخر فتقتله بحجة إقامة العدل وحفظ الأمن. يا لغرابة هذه الحياة، ما أشدّ تناقضاتها وما أشدّ عجائبها! وسط كل هذا كانت أفكاري تقودني مرة أخرى إلى تلك الرؤيا التي شاهدت خلالها والدي في المنام وهو يشير إلى تلال وهضاب البلاد وإلى شقيقي. أسندت رأسي المليء بالأسى إلى الجدار الطيني. الآن اتّضحت الرؤيا وفهمت الرسالة، فليس لي حظ بمشاهدة أخي. سبقني الموت إليه.. هكذا كان والدي يريد أن يخبرني. هكذا كان أبي يريد أن يقول. إن الرؤيا قد اكتملت وتعبيرها اتضح. انسكبت الدموع على خدي وأنا أنظر إلى جدران منزلي وأنا أقبع فيه وحيداً شارد الذهن أفكر في كل تفاصيل تلك الحياة الموجعة وآلامها وهمومها. لكن العجيب فعلاً أن أبي وأمي دوماً معي يرعياني، وخاصة في تلك المواقف الشديدة القسوة.

وسط حالة من الاكتئاب والوحدة، تسرّب الأمل إلى نفسي، وجعلت أتمتم: لعل القادم أفضل وأجمل. وقلت: لماذا لا أحْدث في حياتي تغييراً؟ لا ينقصني شيء.. لديّ المال والقوة، فلماذا الخوف والتردد في العودة؟ بالتأكيد إذا شاهدني أخي الكبير سيعطيني نصيبي من تركة والدي. نعم فالزمن قد تغيّر والأحوال تبدلت والعدل انتشر، وزمن الظلم والتجبر وتسلط القوي على الضعيف انتهى دون رجعة. وجدتني أثب فجأة أسابق اللحظات وبدأت في تجهيز أغراضي للرحيل؛ كلما مضى الوقت كان الحنين يقتلني والأشواق تكاد تقتلع قلبي. عندما أصل، أول شيء أفعله هو أن أقبّل رأس أخي الكبير وأقدم له هذه الهدية: أداة مخصصة لحصد الحقول، كنت قد اشتريتها من أحد الباعة، ولا بدّ وأنا في طريق عودتي من المرور على الراعي العجوز وزوجته للسلام عليهما وسأهديهما هذه الملبوسات الحريرية الفاخرة وسأضع في يده عدداً من القطع الذهبية؛ لقد أكرمني الرجل، وهو سبب ما أنا فيه الآن من نعيم وخير. ولن أتركهما أبداً. سأصلهما دوماً.. أيضاً صاحب القافلة لا بدّ أن أسأل عنه عند وصولي، فهو رجل طيب القلب رغم ما يظهره للناس من جفاء وتكبّر، وهو رفيق دربي ورحلتي الأولى وكان خير مرشد وموجّه. في الغد سأذهب لأطلب إذناً وسماحاً بترك العمل والعودة إلى دياري. أغمضت عينيّ في ذلك المساء، وهذه الأفكار والأحلام تحلق بي حيث تقبع

قرية صغيرة بين تلك السلسلة الشاهقة من الجبال الممتدة من أقصى الجنوب وحتى أقصى الشمال، فالسنوات التي انقضت وأنا في الجندية لم تنسني كل تفاصيل حياتي الماضية. طرق العودة لم تتغيّر في ذهني، كما لم تغيير على أرض الواقع؛ فالتحوّل البطيء الذي يحدث في المجتمع لمّا يشمل المواصلات وتحسين الظروف التنموية للناس في تلك البقاع من البلاد بعد. التحوّل الذي كان ماثلاً أمام الجميع هو في حفظ الأمن وبسط النظام والمحافظة على الأرواح، وهو أكبر ما كان يتطلع إليه إنسان ذلك الزمن. أما التحوّلات والتغيّرات في مجالات الحياة الأخرى، فقد تحتاج سنوات أخرى حتى تتم ويشاهدها الناس ويعيشونها، ولذلك عندما بدأت رحلة العودة - يقودني حنيني وأشواقي لأهلي وبلادي- وجدت أنها لم تتغيّر فوسيلة النقل والمواصلات وتلك الطرق التي تعبرها الجمال لم تزل موجودة.. الشيء الوحيد الذي اختلف هو أن الصبي الذي جاءت به ظروفه وأحواله هرباً من الفقر والفاقة والمستقبل المظلم.. يعود اليوم شاباً قوي العود ومعه أيضاً الكثير من النقود والهدايا لشقيقه الوحيد المتبقي. عندما ذهبت إلى السوق للبحث عن وسيلة النقل وجدت العشرات يتسابقون للفوز بمرافقتي؛ فمنهم من هيأ راحلة برِكَابها المريح، وآخر أكد معرفته الطرق وأن رواحله مميزة وقوية. لكنني كنت أبحث عن ميزة أخرى في ذهني أهم من سواها وهي أول قافلة

ستسير نحو الديار.

وعندما حضرت في اليوم التالي للسفر، وجدت الحفاوة والتكريم فدمعت عيناي لأنني عرفت أن الإنسان بسيط جداً، يخدعه الشكل دوماً لا الجوهر.. سارت القافلة نحو الديار والأهل، وبدأت معها ذكريات الماضي المؤلم، فعلامات الطريق التي لم تتبدّل كثيراً جعلت تبعث في ذهني الشخوص والأحداث والمواقع بآلامها وأحزانها. رفعت بصري إلى السماء – وقد أغرقتني الدموع –: شكراً أيها الربّ فقد علمتَ بحالي الضعيف عند وصولي قبل سنوات فأخذت بيدي وهيّأت لي أسباب النجاح حتى غدوت على ما أنا فيه من نعمة الشباب والقوة والمال.

زيارة الراعي

انقضت أيام وأنا في طريق العودة. وفي أولى المحطات قمت بشراء ناقة وحملت متاعي عليها وواصلت طريقي لزيارة الراعي العجوز وزوجته. بعد ساعات، توقفت أمام منزله الصغير، نعم إنه المنزل نفسه الذي أكرمني فيه لسنوات مضت.. غزتني الذكريات بتفاصيل تلك الأيام ولياليها. بينما أنا غارق في الذكريات، خرج رجل من المنزل وفوجئ بوجودي تماماً. حيّاني، لكني لم أعرفه. لم يكن من انتظرتُ أن أراه. لم أشاهد هذا الرجل من قبل.

رحّب الرجل بي أيما ترحيب، وأدخلني المجلس وسكب لي القهوة، فسألته عن الراعي وزوجته.. فرد عليّ بسؤال آخر: من أين تعرفهما؟ فأخبرته أنني قد قضيت جزءاً من حياتي في ضيافتهما وفي رعايتهما فكانا لي نعم الأب والأم. قال: هذه الليلة نتناول طعام العشاء وننام، وفي الصباح سأذهب بك لتراهما إن شاء الله، فتسلم عليهما. تهلّل وجهي بالفرح والسرور.

وقبل بزوغ الفجر استيقظت، فقد تعوّدت هذا الحال في المعسكر.. بل في حياتي كلها. خرجت نحو الأرض المزروعة، فسمعت أصوات الرياح تلعب بأوراق الذرة والطيور فبداية الصباح والندى الذي يبلل الأرض والصخور يغري الناظر، حيث تنبعث في الصباح الباكر حياة قصيرة قبل أن تئدها الشمس

بلهيبها الحار. يتكرر هذا المشهد كل يوم من أيام حياتنا، أما أنا فقد عادت بي الذكريات إلى سالف حياتي. كم سقيت هذه الأغنام وكم وضعت لها من الحبوب وكم حصدت هذه الأرض وبذرتها بالمحاصيل! إنها أيام طفولة في ظل أناس لا تربطك بهم أي صلة من القربى أو الرحم؛ إنهم أبعد ما يكونون عنك، وبرغم هذا رعوك وعطفوا عليك وأعطوك الحنان والرعاية. ها أنت تعود إليهم كما يعود الابن البار إلى أبيه وأمه يبشرهما بالنجاح والتوفيق. تقودك نحوهم أيام بل سنوات قضيتها بينهم لم يسمعوك خلالها إلا الكلام الطيب. لم يبعدوك عن قلوبهم فضلاً عن مجلسهم ودارهم. أطعموك وشاركتهم ضحكاتهم وشكواهم وألمهم وسعادتهم، ولم تشعر يوماً بأنك غريب عنهم. إنهم أهلٌ بحقّ.

كنت أغرق في أفكاري حين ناداني الرجل فتوجهت إليه فقال: ألم تلهبك الشمس؟ قلت له: لقد قضيت هنا سنوات لا يمكن أن أنساها وأريد السلام على.. فقاطعني قائلاً: لقد وعدتك وسأفي بوعدي وستراهما وتسلم عليهما، ولكن أولاً نتناول الفطور.

كان الفطور عبارة عن عسل وخبز بُرّ وهو أفخر ما كان يُقدم، فرفعت بصري وجلت به أطراف الغرفة المبنية من الحجر وأعدت نظري نحو وعاء العسل، ثم نظرت نحو الباب وقد امتلأت عيناي بالدموع. لقد تذكرت – وبوضوح شديد – أيام الإفطار مع

الراعي العجوز وزوجته، عندما كان يضع وعاء العسل وخبز البرُّ بين يديّ ويقول: تناول طعامك جيداً أيها الطفل الكسول فأمامك يوم شاق من العمل.. وجهت نظري نحو الرجل الذي لاحظ الدموع على خدّي وقلت: أين الراعي وزوجته؟ قال: إنهما هنا.. واصل طعامك أيها الضيف وستراهما. نهضت وأنا أقول: أرغب أن أراهما أولاً، فنهض الرجل وقال: حسناً اتبعني. خرجنا من البيت نحو قطعة من الأرض تقع خلف المنزل وقال الرجل وهو ينظر نحوي ويشير: إنهما هنا. فامتلأت عيناي بالدموع وجثوت على ركبتيّ وأجهشت بالبكاء؛ نظرتُ إلى قبريِّ من أردتُ السلام عليهما شوقاً وعرفانا!. لكنني لم أتمكن حتى من شكرهما. شعرت بخيبةٍ أمام عجزي عن ردّ شيء من جميل صنيعهما لي.. شعرت بعجز وتأنيب ضمير لم يكن لي فيه أي ذنب.. بكيتهما بحرارة!

اتكأت

حملت أحزاني وواصلت مسيرتي، وكان لا بدّ أن أغيّر طريقي باتجاه الشرق قليلاً لأصل بيت صاحب القافلة، كما وصفه لي.. وأخذت أسأل عنه، فكنت ألحظ الاستغراب في البداية لسؤالي، ولكن بعد أن شرحت أسباب سؤالي وأنني أقوم بزيارته لأنه صديقي تم إرشادي. توقفت أمام أحد المنازل القصيّة المتواضعة وطرقت بابه. مضت لحظات قليلة حتى خرج رجل فسألت عن صاحب القافلة إن كان موجوداً. صمت وهو ينظر نحوي مذهولاً! سمعت همهمة واقتراب امرأة عجوز خلفه تسأل هي أيضاً عمّن يقف بالباب، فأخبرها بأمري، فسألتني: من أنت؟ ولماذا تسأل عنه؟ فأجبتهما: إنه صديقي وقد جئت للسلام عليه لا أكثر. ردّ الرجل بحدّة: لقد توفي.

- بذهول: ماذا؟!!

- يرد صارخاً: مات.. مات منذ ستة أشهر.

وسمعت المرأة العجوز وقد أدارت ظهرها عائدة تقول: صديقه. من يصادق ذلك اللقيط إلا من هو مثله وعلى شاكلته! اتكأت على جدارٍ قريب. إذن هكذا بكل بساطة تموت دون عزاء دون أسف على رحيلك!؟ تموت بلا طفل يبكيك أو زوجة تفتقدك أو أب يحتاجك أو أم تحزن عليك!؟ صاحب القافلة لم

يفهمه أو يعرفه أحدٌ سواي.. كان حظه رديئاً سيئاً جداً في هذه الحياة. عاشها سنوات طويلة مالحة. كلها ألم وهمّ وحزن. ثم موت صامت كئيب! وكأن لسان حاله يقول: يا صديقي عادة لا أحد يسأل عن البؤساء والمعذبين في الأرض. عادة لا أحد يهتم بالضعفاء المحكوم عليهم بالألم وبالحزن. انظر، حتى أنا لا أسأل عن أولئك المحنطين على هيئة بشر. القاسية قلوبهم. الملتهبة مشاعرهم غروراً وكبرياء زائفين. حتى أنا يا صديقي أنبذهم وأكرههم وأرفضهم، فإن لم تتسع الأرض لي فالسماء ملعبي وحديقتي وأرضي، وهناك زوجتي وأطفالي وأحبابي، وأبي أيضا وأمي.

في أرض قصية جلست وحيداً أبكي بحرقة، بألم بالغ.. أصرخ وأصرخ فتعيد الجبال الشاهقة الصدى. كنت أحاول أن أخرج شيئاً مما في نفسي لكن الألم والحزن يترسبان ويمدان جذورهما داخل روحي. واصلت رحلتي نحو المحطة الأخيرة وأنا مليء بالأسى لهذه الأقدار التي ما فتئت تنهكني وتهدّ قواي. هذه الأقدار المتمثلة في الموت وقسوته وقسوة مفاجآته وقوة بطشه بل وحقيقته الموجعة في فراق الأحبة. غادرت مكسور النفس محطم الفؤاد لا ألوي على شيء. انكسرت فرحة الإنجاز والسعادة التي كانت تلجّ بها نفسي وبقي الأمل في الأعالي بين السموات، أما الدموع التي تواصل انسكابها من عيني، فقد اعتدتها، بل حتى إنّ

طعمها لم يعد مالحاً.

أربعة أيام أمضيتها في طريق عودتي إلى الديار حيث عبق ذكريات الأبوين - اللذين لم أشاهدهما - وبقايا الماضي على تلك السفوح. هاهي الأيام التي انتظرت انقضاءها سنوات لأفرح بالعودة. ها هي تعود بالخيبات.. إني منهك القوى محطم الفؤاد وما فتئت الآلام تموج بوجداني. توقفت عند شجرة كبيرة أبكي الوحدة التي رافقتني سنوات وأبكي الحنين إلى والديّ. وربما أيضا أيام القسوة والمستقبل المجهول والخوف. أبكي لأخرج ما فيّ من آلامٍ وأحزان.

المـوت

في صباح اليوم التالي وصلت أرض أبي وأمي. كانت الرياح شديدة مصحوبة بالرعد والبرق وزخات من المطر. وقفت قبالةَ منطقتنا، فإذا هي كما عهدتها لم تتغيّر حالها وكما تركتها صغيراً. بدأ المطر يشتدّ وزخاته تنهمر بقوة أكبر. توقفت أمام منزل أبي الذي ورثه عن جدي. البيت الحجر. مازال شامخاً كما تركته منذ سنوات. وكأن هذا البيت الحجري هو الوحيد الذي لم تعبثْ به سطوة الزمن والتغيّر. تقدمت نحو بابه الخشبي ورحت أطرقه بقوة تسابقني عواطفي إلى عناق شقيقي وتقبيل يديه. أليس هو الذي طلب عدم حضوري إلا عندما أصبح رجلاً يُعتمد عليه؟ ها أنا قد أصبحت رجلاً! أطرق الباب ولكن بلا جواب! ألقيت نظرة على البيت من الخلف فوجدت النوافذ موصدة. لكنه شيء طبيعي في ظروف المطر والبرد. فعدت أضرب الباب بيدي ورجلي فلم يجبني أحد أو يرد عليّ. أعيتني المحاولات فجلست عند الباب وقد تبللت تماماً. وبعد فترة توقف المطر وبدأت السحب في الانقشاع إلا أن الهواء مازال بقوته وشدة برودته فنزلت نحو حظيرة الماشية. وصعقت لأنني لم أجدها. وألقيت نظرة نحو البلاد (هكذا نسمي الأرض في مناطقنا) القابعة في الوادي فإذا هي كسيرة لم تتم زراعتها أو العناية بها منذ زمن.

عندها تأكدت أنه لا أحد في الديار. بقيت أراوح مكاني لا أعلم ماذا أفعل وماذا أقرر. أنزلت ركابي من على ظهر الناقة، وأشعلت النار أمام باب البيت الحجر، وقررت الاستراحة وقضاء الليل هنا.

حاولت أن أنام تلك الليلة برغم القلق وكثرة الأسئلة، لعلي أجد من يجيب عن أسئلتي في الصباح، لكنها ظلت تلح عليّ: أين ذهب شقيقي وزوجته؟ بل أين الرعاة؟ وأين الماشية؟ ولماذا لم تتم زراعة البلاد منذ فترة من الزمن كما يبدو لي؟ وبرغم قلقلي وحيرتي، غلبني الإعياءُ فنمت.

في الصباح كانت الشمس تغطي الأرجاء بدفئها حين استيقظت على أصوات الماعز والماشية. ضحكت واستبشرت خيراً، وقمت أبحث عن الراعي الذي توقف ينظر نحوي بذهول عندما وجد نفسه أمامي. بادرته بالسؤال: أين شقيقي صاحب هذا البيت؟ لكن الرجل الذي تحوّلت ملامح وجهه من الذهول إلى الغضب.. ردّ قائلاً: إذن أنت أخوهم الصغير المتبقي!! إن شقيقك الكبير قد توفي قبل فترة من الزمن. وبعدها بأشهر لحقت به زوجته؛ فقد أصاب الناس وباءِ مات على إثره كثير منهم! وقد دفن شقيقك بالقرب من أبيك أسفل سفح هذا الجبل، وأظنك تعرف قصة أخيك الآخر وماذا حدث له. هذا الرجل ماذا يقول؟!! تبّاً له، أيقول إن آخر فرد من أسرتي قد توفي أيضاً؟ تبّاً لماذا يقولها هكذا

دون مبالاة أو اهتمام بمشاعري؟ لكن هذا لا يهم طالما كانت هذه هي الحقيقة. رحت أنظر إليه مبتسماً مذهولاً: ماذا يريدني هذا اللعين أن أجيبه أو أن أقول له؟ جلست وقد تجمّعت بي أحزان الدنيا وآلامها. لم يكن في استقبالي سوى القبور والأسى! رفعت رأسي نحوه فواصل حديثه قائلاً: إنني أعلم أن الوقت غير ملائم لأقول لك إن هذا البيت وهذه البلاد قد اشتريتها من أخيك قبل وفاته وقد قبض ثمنها نقداً، وهناك شهود على البيع وتمت كتابة ذلك. أخرج من جيبه مفتاحا وفتح الباب الخشبي وأدخلني إلى البيت الحجر وقال: ابقَ هنا حتى تجد لك مكانا تأوي إليه. وغادر!

غطاني الحزن على فقد أخي وأثقلني. كنت أشعر داخل نفسي بذلك الخوف الذي سكنني في الماضي عند مغادرتي لهذه البلاد. وقد عرفته من المرارة نفسها، فهي ذاتها تلك التي عدت فتذكرتها بوضوح. لقد ذهلت تماماً من سرعة الزمن وسرعة تغيّراته. من تقلب الأيام وسرعتها المذهلة في التبدّل. لا أحد يحتفل بعودتي! لم يستقبلني أحد.. سوى الصمت المريع. والسكون المفجِع.

الرب يتدخل

انقضت أيام وأنا لا يغادرني حزني العميق لما آلت إليه الأمور. لم أتوقع هرولة الزمن المريعة وفتك الموت السريع ولا قوة الأقدار الرهيبة. كنت غارقاً وسط متاعب لا أعلم كيف أخرج منها.. أو كيف التصرّف حيالها فخبرتي وقفت عاجزة عن معالجتها. كنت أحاول – بكل جهدي – الخروج من هذا المأزق، لكني كنت كمن يدور في حلقة مفرغة. أعود إلى بدايتها في كل مرة!! قلبي يكاد ينفجر.. وعقلي يكاد لا يقوى على التفكير المتواصل. أما جسدي فقد أعياهُ الإرهاق وعدم النوم.

بعد ظهر أحد الأيام دخل الرجل الذي اشترى أرض والدي وقال لي: أيها الشاب، ماذا أنت فاعل؟ فأنا كما تعلم أسكنتك بضعة أيام. أخذني الغضب فأجبته: أنت تعرف أن هذه البلاد وهذا البيت الذي تتحدث عنه، هي أرض أبي ومن قبله أجدادي. وإني أعلم الآن أن شقيقي ما كان ليبيعك لو أنه كان بكامل قواه الصحية. لكنك انتهزت فرصة مرضه وضعفه فأغريته بالبيع، ثم إنه لا يملك أن يبيعك سوى ما يملكه هو. كما وإنك تنتمي إلى مكان آخر وليست هنا بلادكم أو أراضيكم. لهذا كله لن يكون بيني وبين استعادة بلاد أبي إلا الموت. كنت وأنا أتحدث بهذه القوة أشعر لأول مرة في حياتي أنها قضية حياة أو موت،

فخسارة الأرض والبلاد تشبه تماماً خسارة الروح دون الحياة. وهو الألم الذي لا يمكنني أن أصبر عليه أو أصمت حياله، ليس لحبي وانتمائي القبلي، إنما لأن هذه الأرض يدفن فيها أبي وأمي وإخوتي وأريد أن أموت أيضاً بقربهم لشوقي إليهم وحبي لهم.
ذهل الرجل تماماً وشعرت أنه علم بقوتي وإصراري فقال: لقد دفعت لأخيك كل ما أملك من مال مقابل شراء هذه البلاد. أعد مالي وخذ البلاد.
لاشكّ أنّ الرجل متمسّك بها جداً، و لم يكن ليفكر في التنازل عنها، لولا أنه شعر بأنها قضية حياة أو موت بالنسبة لي. فأنا لا أملك شيئاً من بقايا عائلتي إلا هذه البلاد وذلكم البيت الحجر. أما هو فمجرد عابر في تاريخها الطويل، ثم إن في ترابها ينام أهلها الحقيقيون والذين هم أبعد ما يكونون عنه. ما إن سمعت ردَّه حتى نهضت وقد امتلأت حماساً وحيوية وقلت: إنني مستعد لإعادة مالك. لم يمضِ سوى لحظات قليلة جداً حتى عدت وأصبت بصدمة عندما علمت أن المبلغ كبير وأن ما أملكه لا يتجاوز النصف. فطلبت منه إمهالي حتى الغد.
في المساءِ كنت أراوح مكاني ذهاباً وإياباً. كيف السبيل لإعادة البلاد، والمال الذي بحوزتي لا يكفي؟! سأقترض، ولكن من هو الذي سيقرضني مبلغاً كبيراً كهذا؟!
عندما اقترب موعد البيع.. لم أكن أعلم ماذا أقول! فقد كنت في

فوضى شاملة من التفكير. و لم يمضِ وقت طويل حتى حضر الرجل ومعه عدد من الرجال. قال: إن هذين الرجلين هما اللذان شهدا على البيع الأول حين اشتريت من أخيك وهما أيضاً سيشهدان على البيع الثاني لتعود البلاد والبيت الحجر إليك. عندها بدأت أتصبّب عرقاً، ورأيت في عيونهم أنهم ينتظرون دفع المبلغ. كنت في حيرة تماماً. أوزع خلالها ابتساماتي بصمت مرّ. كان معهم رجل مسن، قال لي يستعطفني: يا بني إنني أرغب في طلب منك، وأرجو أن تعدني بتلبيته. لقد وجدت في تدخل هذا الرجل الهرم مخرجاً لي لبعض الوقت حتى أستطيع إيجاد فكرة ما. فسارعت بإجابته: إن شاء الله أنفذه إذا كان بوسعي ذلك. فقال الرجل المسن: يا بني إن ولدي هذا قد قام بشراء هذه البلاد من أخيك كما تعلم، وإنه كان يتوقع أن تعود. لكنه لم يكن يتوقع أن يكون لديك المقدرة على استعادتها. وهذا حقك يا بني، لكنني أرغب أن يتم إرجاء بيع البلاد التي في الوادي حتى العام القادم، فولدي هذا لديه عدد من الأطفال ويعولني أنا وأمه وإخوته، ولعل الله يرزقنا من زرعها وحصادها. وفي نهاية العام تعود إليك إن شاء الله. لم يكمل حديثه إلا وقد وجدته مخرجاً من نقص المال الذي في حوزتي وعجزي عن استعادة بلادي كاملة. أمسكت فرحتي وصمتّ أفكر للحظات ثم قلت: وما الذي يضمن لي أن يأتي العام القادم ويقوم ابنك بتنفيذ البيع؟ فقال العجوز: أنا أضمن

ذلك وهؤلاء الشهود، فقلت: إنني أوافق من أجلك أيها الشيخ المسن، فتهلّل وجه ابنه فقام وقبّلني على رأسي، وجعل من في المجلس يثنون على كرمي وطيب أخلاقي.

هكذا دوماً كانت تتدخل العناية الإلهية لإنقاذي من أحلك المواقف وأصعبها. هكذا كنت أشعر أن هذا الربّ الرحيم بجواري دوماً.

بعد موافقتي غمرتني السعادة حين وجدت أن المبلغ المطلوب منّي لاستعادة بعض من البلاد والبيت الحجر مساوياً لما معي بالتمام والكمال. دفعتها وعادت إليّ بعض من أراضي أبي. تمت كتابة الصّك وشهد الشهود. غادروا البيت الحجر. بيتي. بكيت بحرارة وبصوت مرتفع. بكيت بحرية تامة وسط دياري.

لم يكن قراري

ما إن استقر بي المقام حتى بدأت علامات شح الطعام وأنا الآن لا أملك فلساً واحداً. وحتى لو بدأت في الزراعة، فكم سأحتاج من الوقت والجهد. وبينما أنا في هذه الدوامة وهذه الحال، إذا بعدد من الرجال من عشيرتي وأقربائي قادمين. رحبت بهم وأدخلتهم – وكنت أفتقد وجودهم – خلال الأيام الماضية. قلت معتذراً: إنني لم أجهز القهوة. فقالوا: نحن نعرف أن أمورك غير مستقرة فخلال اليومين الماضيين كنت في مفاوضات من أجل استعادة بلادك. ولقد سمعنا الأخبار الطيبة بأن وفقك الله في ذلك. وقد جئنا لتهنئتك أولاً ثم لتأتي في الغد وتتناول طعام الغداء عندنا.

عندما همّوا بالانصراف قال أحدهم: إن علامات الغنى والثراء تبدو عليك. فقد دفعت من أجل إعادة هذه الأرض مبلغاً كبيراً جداً، فهل تحتاج لمن يساعدك في زراعتها وتعطيه أجراً شهرياً أو جزءاً من محصولها وتريح نفسك وتتفرغ لما هو أهم؟ أطبق عليّ الصمت برهة ثم قلت: فعلاً.. إنني أبحث عمّن أؤجر له هذه البلاد ليسكن فيها ويزرعها ويأخذ جزءاً من غلتها ومحصولها. ذهل الجميع، وقال آخر: هل يعني هذا أنك ستعود فتسافر؟ قلت: نعم فلدي عمل ولا بدّ أن أعود إليه. بعد مغادرتهم دمعت عيناي لأنه تأكّد لي أنني قد قررت مغادرة هذه البلاد مرة أخرى

بالرغم عني. في الحقيقة لم يكن قراري، إنما هي الحال تدفعني إلى هذا؛ لم أخطط لأي شيء مما سارت إليه الأمور. كانت جميع الأمور تسير وأنا في نبضها لا أقوى حتى على تغيير دفتها. لكن الشيء المؤكد هو أنني شعرت أن جزءاً من كياني مازال مفقوداً، وأن إنجازي لم يكتمل. لذلك كان شيئاً جميلاً أن أفكر في أن أتمّ عملي. نمتُ تلك الليلة وأنا أتضوّر جوعاً.

شعوري بالإنجاز أو تحقيق النجاح لم يدم طويلاً فأنا الآن وحيد. وبلا صديقٍ أو معين.. كل الذي لي هنا أرض وجبل يرقد تحت ثراه والدي وجدي وشقيقي. إنهم كل من أحتاج وأحب أن يكون بقربي، لكنهم تحت التراب، وأما ما فوق الأرض فمساحة شاسعة من الفيافي والسهول وزرقة طويلة على امتداد العين في السماء وذلك البيت الحجر العتيد، الذي تحكي جدرانه علامات الأوائل وقسوة الزمن والوحدة والشوق للأهل. لقد انبعث عبق الماضي، وذكريات الأمس.. وكم تمنيت أن تكون عودتي إليهم وهم أحياء.. لا يعلم حجم الحنين ولا فعله إلا من يفقد أعز الناس، ليعيش من بعدهم وحيداً.

أشرقت الشمس وقد بلغ الجوع الذي أعاني مداه. فكرت ملياً في نحر ناقتي من أجل الطعام.

كنت أجلس على أحد التلال، أفكر في محاصرة الجوع الذي ألمّ بي، فإذا بفتاة وبرفقتها صبيّ يصغرها سنّاً متجهين نحو البيت

الحجر، فهبطت مسرعاً نحو المنزل، إلا أن الفتاة توقفت بعيداً، وأكمل أخوها الطريق حتى اقترب مني وناولني ما كان يحمله وعاد سريعاً - حتى قبل أن أسأله أي شيءٍ - نحو شقيقته وانصرفا. أما أنا وقد شممت رائحة ما كان ينبعث من وسط القماش فقد ذهب ذهني إليه. وجدت عدداً من أقراص البُرّ ووعاءً من السمن، ومن فوري دخلت المنزل مسرعاً فالتهمت الطعام. لقد مضى يومان لم أتناول خلالهما شيئاً. بعدها استرخيت وغططت في النوم، لم يوقظني من سلطانه إلا صراخ رجل في الخارج كان ينادي عليّ بصوت مرتفع فنهضت من فراشي وخرجت إليه لأعرف خطبه. كان شاباً وبصحبته امرأة عجوز، بادرني قائلاً: لقد علمنا أنك تبحث عمّن يرعى بلادك في غيابك وإنني مستعد للقيام بذلك.

وقفت لا أعلم بماذا أجيب! فها أنا أدفع لمغادرة الأرض التي أحببتها وتعلّقت بترابها روحي.. أدفع لمغادرتها دفعاً، فأنا لا أملك المال لاستعادة بقية الأراضي الزراعية كما إني لا أملك مالاً لشراء الماشية ولا لإعادة سقايتها وزراعتها. إنني مفلِس تماماً ولا أملك أن أعمل شيئاً من هذا. بل إنه لا يوجد ما أتناوله من طعام في الغد! وبعد، إنني بحاجة للزواج، والناس تتطلع إليّ وكأني قد جئت بثروة - وعاجلاً أو آجلاً - سوف يعرفون الحقيقة: لا شيء لديّ. وهو ما أخشاه.. أوَلستُ في غابة لا يُحترم فيها إلا الأقوياء الذين يملكون الأرض والمال. وأنا - ببساطة - لا أملك

إلا الأرض، وقد دفعت من أجل استعادتها كل ما أملك من تعب السنين الماضية. واليوم أعجز عن زرعها وحرثها. هنا تملّكتني فكرة استحوذت على تفكيري، وهي أن أعود للسعي من أجل جمع المال الذي أستطيع به أن أكمل استعادة الأراضي المتبقية كي أستقرّ نهائياً وتكون لي أسرة قوية تحفظ هذه البلاد وتصونها ونعيش فيها بسعادة.

اكتملت الفكرة في ذهني واقتنعت بها باعتبارها الحلّ الأجدى. توجهت نحو الراعي وأمه العجوز اللذين سيرعيان بلادي في غيابي، وأسكنتهما إحدى غرف البيت الحجر وقلت له: سأسافر في الغد وقد أغيب طويلاً وعندما أستقرّ سوف أرسل لك مع إحدى القوافل العائدة برسالة فيها مكاني حتى يمكنك إطلاعي على كل شيء، وقمت من فوري أوصي وأرشد الراعي الجديد. وفي صباح اليوم التالي كنت قد جهزت راحلتي لمغادرة الأرض التي طالما أحببتها. وطالما تمنيت البقاء فيها.

وقفت أتذكر رحلتي الأولى وما كانت تضجّ به نفسي من ألم فراق الأرض وقسوة الأقارب والواقع. دمعت عيناي لأنني في رحلتي الأولى لم يكن قرار رحيلي بيدي. واليوم أيضاً لم يكن قرار مغادرتي بيدي، ففي كلتا الحالتين أجبرت على السفر بعيداً عن الأرض التي أحببت والتي بها عبق الأهل والأبوين. بكيت اليوم كما بكت عيناني بالأمس الظلم والإهانة. لكنني اليوم أبكي

الأقدار المؤلمة التي – منذ أن وطئت قدماي البلاد – انبعثت في وجهي تلفحه بقسوة وبلا رحمة ولا هوادة، حتى إنها أجبرتني على المغادرة.

لقد قررت العودة إلى معسكر الجند.. ولكني أغادرُ مكسور الفؤاد وحيداً حزيناً – بالضّبط – كما كنت بالأمس. أغادر ولكن بفارق: إنني أعلم هذه المرة أين هي وجهتي.

الأب

حـزنـان.. وحـزن!

كان للعراك والخصام دوماً وظيفة غير مبررة. وكان للخلاف شكل مؤذٍ لصورة الإنسان المتسامح... في المجتمعات التي ترعرعت فيها تجد أناساً عصبيين يعيشون بغضبٍ دوماً. تراهم وقد تخلّوا عن إنسانيتهم وملأت العدوانية قلوبهم ظلماً حتى لإخوتهم من البشر. لكنهم في الحقيقة خائفون يغطّون خوفهم بالغضب وإظهار مشاعر العنف كي ترهبَهم وتخافَهم إذا ما فكرتَ في الاعتداء عليهم أو محاولة سلبهم ما يملكون.

هذا هو العام 1948 الميلادي الحزين الذي اندلعت فيه أولى الحروب العربية الإسرائيلية حيث استولى اليهود على فلسطين وحشدوا عشرات الآلاف من المقاتلين، ومنذ ذلك الحين لم يتوقف سفك الدم الإنساني. الصورة نفسها تتكرر. الظلم الذي حدث خلالها كان مدوياً عنيفاً. في مجتمعات عديدة يحدث الظلم والعنف لكن ببطء. دون ضجيج. في موضوع إسرائيل وظلمها للعرب وطردهم من فلسطين ظلم مدوٍ. استنفرت الجيوش العربية لتكون في صف المظلومين والمضطهدين. وللدفاع عن أناس تحوّلوا بين ليلة وضحاها إلى لاجئين يعيشون في العراء، لقد كنت أثناء اندلاع هذه الحرب أحد الجنود المتمرسين الذين

أمضوا في الجندية سنوات طويلة، ومن ثمّ تم اختياري لأكون واحداً ممن سيتوجهون إلى جبهات القتال، في ذلك الحين فكرت مليّاً وكثيراً في هذا، كأنني أدخل صراعاً لا يعنيني. اليوم بات واضحاً أن الدماء التي أريقت في تلك الحروب ذهبت سدى دون ثمن، وأن الأمر لم يتجاوز لعبة، وكان الإنسان البسيط الضعيف هو من يدفع الثمن من حياته وروحه.

أنا الحــر

أحد أصدقائي على ساحة تلك المعارك كان ياسر. وياسر شاب في مقتبل العمر أسرني إليه هدوؤه وانطواؤه، وعمله الدؤوب بصمت وحيرة، لم أواجه صعوبة في التعرف إليه، لقد كان في شوق للحديث مع أحد ما أو في لهفة لصديق يبدّد عزلته. ذات يوم قال: أوشكت أن أنسى نغمة صوتي! كان يشير إلى صمته التام الدائم حتى يخيّل إليك أنه أبكم. ياسر لم يكن يخاف الموت، بل يسعى إليه بجد ومثابرة، كان يلقي بنفسه في أتون نيران العدو بكل شجاعة وبسالة. أمام بطولته كنت أشعر أنني قزمٌ وأن هناك من لديهم مبادئ في الحياة يريدون الموت من أجلها، كنت أقول: إن ياسر محمّل بالحماس لقتل اليهود المعتدين على أرض فلسطين ويريد الموت شهيداً. قلت له يوماً: إن شجاعتك وبسالتك مضرب مثل. ضحك من أعماق قلبه وقال: صديقي، إن اليهود شعب مشرّد ومضطهد ومن الحماقة إنكار هذه الحقيقة، نحن العرب أمة تعيش وفق أديان مختلفة ومذاهب متعددة لذلك لم يكن مفهوماً رفض إسكانهم وخاصة أنهم قاموا بشراء بعض الأراضي العربية بالمال.!

صعقت تماماً من مثل هذا الكلام من جندي باسل يواجه ذلك العدو، الذي يبرّر الآن احتلاله للأراضي العربية. وعندما شاهد

الهلع على وجهي، أضاف قائلاً: المشكلة في المخطط الصهيوني الذي كان له أهداف أخرى تقوم على إلغاء الآخر، على إلغاء السكان الأصليين للبلاد، إن ما يحدث الآن ليس صراعاً أيديولوجياً دينياً بين مسلم ويهودي - كما يحاول الجميع إيهامنا به، إنما الصراع الحقيقي بين قوتين كل واحدة منهما في غاية من الأنانية والعنصرية.

لعل هذه الأفكار التي يحملها ياسر هي ما تجعله منبوذاً وسط أصدقاء السلاح وبالتالي فإن بسالته وشجاعته لم تشفعا له بأن يكون عنصراً فعّالاً وسط محيطه ومجتمعه. كان ياسر صاحب رأي ويعتبر نفسه حرّاً في آرائه ولطالما قال: إن الله قد خلقني حرّاً، و لم أكن في أي يوم عبداً عند أحد، وإن الإنسان الحر هو من يصدح برأيه دون تردد أو خوف من أحد.

بالنسبة لي كان ياسر شكلاً جديداً من أشكال المعاناة في حياة تثبت لي الأيام أن فيها ألواناً من الألم والهمّ. قلت له: يا صديقي بماذا يفيدك ترديد مثل هذه الكلمات التي تغضب الجميع، وتجعلك وحيداً لا أحد يقترب منك؟ ضحك وقال: لعلي هكذا أشعر أنني متميز، إنني أتبنى ما يؤمن به عقلي، فلمَ أرهن عقلي لدى أحد من الناس ليملأه بما يريد من الأفكار، هذا الواقع الذي أمامي وهكذا أنا أفهمه، ولعل الأيام القادمة تثبت لك أننا نحارب من أجل الأرض وأولئك أيضاً من أجل الأرض، وجميعنا ندّعي

أن حربنا مقدسة من أجل الرب، والرب نفسه خلق الأرض للجميع، هل سمعت من قبل أن الله قد وزع الكرة الأرضية على خلقه من الإنس، وجعل البيض في جزء منها والحمر في جزء آخر والسمر في مكان ثالث؟ لكنه جشع الإنسان وكراهيته لأخيه الإنسان.. ذلك الجشع وتلك الكراهية سببان يقفان وراء كل حروبنا ومعاركنا، مهما كانت الشعارات والرايات.

توغل ياسر في آرائه وبدأ صوته يتعالى بها، ومع كل ضربة من ضربات العدو تصيبنا كنا نجد ياسراً الشماعة التي نعلق عليها خسارة تلك المعركة أو انسحابنا من ذلك الموقع، مرة سمعت من يقول وهو يشير إلى ياسر: لا بدّ من تطهير الجبهة الداخلية من الطابور الخامس، ومرة شاهدت من يبصق في وجهه ويصفه بالعميل. تعالت الرغبات وتحولت إلى فعل صارم ضد صديقي ياسر، الذي تم وصفه بالجاسوس للعدو، وأنه يمارس دوراً خطيراً في تثبيط الروح المعنوية للجند، وأنه يشغل الجند بأفكار شيطانية، قلت له: ياسر، في المعركة لا نسمع سوى صوت الرصاصة، إذا انطلقت تصمت جميع الأصوات الأخرى، يمكن أن تردد مثل هذا الكلام قبل اندلاع الحرب، أما بعد أن نشبت واشتعلت نيرانها فهو أمر خاطئ. نظر نحوي وقال: يتم اقتيادي للقتل وتريدني أن أموت صامتاً مقهوراً!

في أحد أيام معاركنا الطويلة استيقظت صباحاً، لم يكن ياسر قد

عاد من مهمة قتالية مع سريّته، و لم يكن أحد متحمساً من رفاقنا لمعرفة مصيره، كل ما فهمته أنه إما أن يكون قد قتل وإما أن يكون قد تمّ أسره. بالنسبة لي فإن ياسراً تم التخلص منه! العجيب في الأمر أننا بعد فقدنا لياسر لم نخسر معركة، إنما خسرنا الحرب بأسرها.

نار الضمير

عندما حان وقت العودة إلى الوطن كان الجميع سعداء، لا يمكن أن تلوم أي جندي لسعادته بانتهاء حرب كان يشارك فيها حتى وإن كانت حرباً قد خسرها، أحياناً تتملك الجندي رغبة أكيدة ووحيدة في المحافظة على حياته حتى وإن كانت على حساب مصالح أمته، كونه مازال على قيد الحياة والمئات من رفاقه قد قتلوا يعتبر نصراً له. لذلك فإن انتهاء الحرب، مهما كانت نتيجتها، كانت بالنسبة للكثيرين من رفاق السلاح فرصة ثمينة للتعبير عن فرحتهم بالبقاء على قيد الحياة. أحد أولئك الجند كانت مشاعره مختلفة؛ فبدلاً من البهجة كانت الحسرة وبدلاً من السعادة كان الحزن وبدلاً من الفرحة كان البكاء. إنه صديقي إسماعيل الذي لم يكن فرحاً بانتهاء الحرب، بل كان يبكي بحرقة وألم، توجهت إليه قائلاً: اطمئن، إذا كنت تعتبر أننا هزمنا فهو اعتقاد خاطئ، الأجيال التالية ستواصل النضال والقتال. رفع رأسه نحوي وقال: حتى الحرب لم تقدم لي الموت، أريد أن أموت. أن أنهي حياتي. كان إسماعيل يبدو لي مريضاً بل مؤكد أنه مريض، لذلك وجدت أن من واجبي الإنساني أن أظل بقربه أساعده وأخفف عنه. بعد مضي أيام ونحن في طريق العودة إلى الوطن، عرفت وأدركت أن إسماعيل لم يكن مريضاً، ولم يكن

حزيناً من أجل هزيمتنا في الحرب، بل لم يتمنَّ الموت من أجل أن ينال منزلة الشهداء في الجنة كما تم الوعد.

إسماعيل كان يريد الموت، لكن لماذا؟! لقد كان واحداً من أربعة إخوة ورثوا عن أبيهم أموالاً طائلة من الأراضي والمزارع والبغال والجمال والأغنام والخراف، أحكم إسماعيل واثنان من إخوته خطة قاسية لتجريد أخيهم الأصغر من حقوقه في الإرث كونه من أم أخرى، ويخافون – كما برّروا لأنفسهم – أن تضيع أمواله لصغر سنه. بعد عامين كبر الصغير وبدأ يطالب بحقوقه بهدوء وطيبة وبأخلاق عالية جداً، يقول إسماعيل: كان يأتي إليّ ويتحدث معي طويلاً في شتى الأمور ويجلس يداعب أطفالي ويلاعبهم، ويسقي معي الزرع بطيبة وابتسامة عريضة، ضحكاته العالية تنم عن قلب أبيض حتى إنه إذا أراد الحديث عن إرثه يقول لي ومسحة الحياء واضحة على محياه: يا أخي الحاجة هي التي تدفعني لسؤالك أن تحاول إعادة ولو جزء يسير من حقوقي من إرث والدي، عندها أشتاط غضباً وأقوم بطرده، فيذهب إلى الأخ الثاني، ثم الثالث، بدون جدوى. في كثير من الأحيان نجده وسط الحقول يلعب مع أطفالنا، وفي أحيان كنا نجده نائماً بينهم، في الحقيقة إن أخي الصغير لم يكن يطلب حقوقه الشرعية من إرث أبيه، إنما كان يطلب حبنا وكلمة طيبة صادرة من قلوبنا، مسألة المال لديه لم تكن جوهرية أمام أخوّتنا وحبنا

الحقيقي له، كان يحاول أن يخبرنا في أكثر من مناسبة أنه يحبنا وأن المال يفنى وتبقى الأُخُوّة نبع الخير والسعادة في الحياة، فهو لم يُخرج من فمه كلمة واحدة نابية ضد أي واحد منا برغم أننا - ببساطة — سارقوه. مع كل هذه الطيبة وهذا الحب اللذين نلمسهما في كلماته وفي تعامله كنا شديدي الخوف والريبة منه لدرجة كبيرة جداً. لا تسَلْني كيف انبثقت فكرة التخلص منه برغم سلامه! فكرةٌ نمت حتى تأصلت في قلوبنا! في ذلك الصباح ونحن مجتمعون كان يسألنا عن أطفالنا واحداً واحداً، أما نحن فقد صبغنا وجوهنا بحبه وأخبرناه أننا قررنا منحه حقه من الإرث. الكلمة الوحيدة التي قالها تعليقاً على هذا: إنه كان يعلم يقيناً أننا سنسلمه أمواله. ثم ترك هذا الموضوع تماماً وجعل يتحدث عن أمور بعيدة عن مسألة الإرث والأموال، كان يذكر أثناء حديثه أبانا، وينعش ذاكرتنا ببعض المواقف المضحكة، كنا نضحك معه وننظر إلى بعضنا البعض باستغراب، هل هذه طيبة أم سذاجة كبيرة؟! قلنا له إننا نريد السفر ونريده أن يأتي معنا. لم تسعه الأرض من الفرحة، ومن فوره قام يجهز للرحلة، عندما التقينا في صباح اليوم التالي، كان قد أعدّ كل شيء لهذه الرحلة، وبعد مغادرتنا القرية وبعد أن قطعنا شوطاً كبيراً من طريق السفر وأصبحنا في مكان قصيّ خالٍ بعيد عن الناس، تجمعنا حوله وبادره أحدنا بضربه على رأسه بجذع شجرة! لم يتحرك من

مكانه، كان مذهولاً ويتحسس الدم على وجهه وينظر إلينا بألم كبير، كنا نحن أيضاً في فوضى عارمة وكلٌّ منّا ينادي على الآخر للإجهاز عليه، أما هو فقد كان يستطيع الفرار والهروب لكنه لم يفعل، كان فقط يسأل: لماذا؟! وكان ينظر نحوي باستغراب، أنا متأكد أنه برغم ألم الضربة الأولى على رأسه كان الذهول يسيطر على كافة جوارحه، لقد ميّزنا دموعه، لم يكن خائفاً من الموت إنما كان يعتصره الألم من إخوته. بادره الثاني بضربة أخرى على مؤخرة رأسه، فسقط نحو الأرض بهدوء. حتى اليوم صورة ذهوله لم تفارق حياتي القذرة، هل عرفت لماذا أريد الموت؟ لماذا أتمناه؟ لأنني أعلم أنه أتٍ وبطريقةٍ لن احسد عليها. لم تمضِ أشهر قليلة على قتلنا إياه حتى قتل أحد إخوتي عندما انهارت عليه أحجار غرفته، لقد ظل أسبوعاً كاملاً يتعذب من الألم من رأسه بعدها فارق الحياة. أخي الثاني وهو بين خلايا النحل التي يملكها تعرض للسعة بعوضة، كان لا ينام الليل من أوجاع رأسه، بعدها بفترة من الزمن أصيب بالجنون، ثم وجدناه ميتاً على إحدى الهضاب، وجدناه بعد مضيّ ثلاثة أيام على وفاته، وكانت الطيور الجارحة قد اقتلعت عينيه وبقرت بطنه.

لذلك تطوعت لهذه الحرب لعلي أقتل خلالها فأكون شهيداً عند الله! لم أقتل في هذه الحرب بل نجوت في أكثر من موقع من الموت الأكيد. مرة حاصرنا العدو وبدأ يمطرنا بوابل من الرصاص قتل

معظم رفاقي إلا أنا وآخران مصابان عندما انسحب العدو من مواقعه دون مبرر، في تلك اللحظات كنت أتخيل الموت قادماً لكنه لم يحضر. أين أنت يا أخي الموت؟!.

إذن هذا هو الألم والمرض الذي يعتلج في صدر صديقي إسماعيل. قد يبرأ الجسد من آلامه ومن مرضه، لكن مرض الروح وآلامها شيء آخر.

أيضاً من الذكريات التي مازالت عالقة في ذاكرتي ما كان يعانيه جاسم من قسوتنا جميعاً في التعامل معه لدرجة أنه يتناول طعامه منفرداً وكأنه مريض بمرض معد، وكانت هناك تحذيرات متوالية ومتواصلة بعدم الاقتراب من جاسم أو الحديث معه، ذلك أنه يعتنق مذهباً دينياً مختلفاً عن مذهبنا، وجاسم الذي حضر إلى جبهة القتال من شرق البلاد يفهم ويدرك هذه النظرة تجاهه، لكنه اعتادها لكثرة ما حاول مقاومتها وتصدّى لها. وفي الحقيقة كيف لإنسان بسيط مثله أن يقاوم نظرة مجتمع كامل، مجتمع نسي أثناء تكونه الحديث وبناء مؤسساته قيماً إنسانية عالية تفتقر إلى روح التسامح وتقبل الآخر.

قضية الحب

في الحقيقة إن سفري لهذه الحرب أعطاني خبرة لم أكن لأكتسبها لو أنني لم أكن فيها، وأعطاني جواباً عن سبب خسارتنا لهذه الحرب التي دلفنا إليها بآمال مختلفة وأماني متباينة وأهداف متباعدة، وفي ساحة المعركة شاهدت أبناء وطني الذين كانوا بالأمس يعانون الخوف وعدم الأمن والتشتت والتقاتل فيما بينهم، وهم ليسوا على قلب رجل واحد، لأنّ كلاً منهم قد نقل عصبياته وعشيرته معه! وهناك أيضاً عرفت أناساً مختلفين في عاداتهم ومشاربهم. لقد كانت هناك جوانب أخرى للحياة منها السعيد ومنها الحزين، ومنها الغريب أو المألوف. في الحقيقة لم أعلم أن أناساً لهم معاناة أخرى تختلف عمّا سبق وألفته وتجرّعته أو سمعته، لكنني تأكدت أيضاً أن الظروف ليست متشابهة، بل إنها تختلف من مكان لآخر. أدركت أن هناك ألواناً مؤلمة للحياة وأن للشقاء أشكالاً مختلفة لا تنحصر في الحرمان والفاقة، فاهتمامات الناس لا تنحصر في المأكل والمشرب وحسب إنما هناك اهتمامات أخرى، لعل منها المبادئ العظيمة في الحياة والتي تتجاوز مطالب الإنسان الأساسية في الغذاء والمأوى ونحوها. تعلمت أن نواقيس الأقدار ومشيئة الرب لا رادّ لها سوى الصبر عليها. لا أكثر ولا أقل. إن الاستسلام لإرادة الله كان أكبر دروسي بعد أن صقلتني

هذه التجربة.. كيف لا، وأنا أشاهد الموت مراراً وتكراراً مع رفاق السلاح وكأنه ساكن بقربهم. فقدت من كان بالأمس ينام بجانبي، وذاك الذي كان يقاتل إلى جواري، كلهم سقطوا مضرّجين بدمائهم الطاهرة. إن الموت كان قريباً هذه المرة لكنه لم يخترني، فعرفت أنه سيكون يوماً رفيقي، وأنه لا محالة زائري، فأعطت هذه القناعة قلبي اطمئناناً غير عادي كنت محتاجاً إليه. وأعطت نفسي هدوءاً كبيراً كنت في أمس الحاجة إليه. أسكنتني الغربة بين الناس فلم أعد أهتم بتجريحهم. و لم تعد كلماتهم تؤلمني. بل تعلمت الصمت والابتسام. كان الدرس الكبير أنني ميت لا محالة، فلا يجب أن يأتي هذا القدر المحتوم والآخرون غاضبون عليّ! هذه الحالة كانت تنمو معي باستمرار فسمعت من قال إنني ضعيف، ووصفني آخرون بالوهن، ولكن لم يتغيّر سلوكي وطريقتي في التعامل. إن الموت الذي أمام عينيّ مؤلمة لحظاته حتى وإن كنت في عنفوان الشباب وقوته.. وهو درس من دروس كثيرة تعلمتها بالممارسة وليس بالفهم والتلقين، فصبغت نفسي بعادة الحب العفوي الذي من شأنه أن يجعل الجميع من حولي راضين. لم أملك قلوب الناس جميعاً وإنما أدركوا أنني صادق في حياتي وتعاملي. أما قضية الحب فلها مساحاتها الأخرى.

*كلمات صديقي ياسر ظلت لفترة من الزمن ترن في أذنيّ، ليس بالضرورة أن أتفق معه أو أختلف، المهم أنه عبّر عن رأيه

ومضى: لا تتوقع أن يأتي الحب في أوان الحرب، فحيث تكون الحرب يكون الشيطان. ليست هناك حروب مقدسة وأخرى قذرة، فالحرب قذرة مهما كانت أهدافها أو ما ستحققه. لقد عزز قناعاتي بهذا معرفتي في أن إزهاق الروح يُعتبر عند الرب أمراً عظيماً، وأن زوال السموات والأرض أهون لديه من قتل إنسان بريء.

التغيير

ما إن عدت من جبهة القتال، حتى عاد حنيني إلى بلادي وأرضي يلحّ عليّ. وشجعني وضعي المالي وروحي المعنوية العالية على تكريس هذه الفكرة في ذهني.

فالزمن قد أخذ أجمل الأيام التي يمكن للمرء أن يعيشها لو كانت حياتي تسير بشكلها الاعتيادي، فعمري انقضى وأنا في ترحال وسفر ورحلات متواصلة للبحث عن فرصة للحياة المسالمة والعيش بكرامة دون الحاجة لأحد. ولطالما سافرت وعدت، فأصبح حزن البعاد وفرحة العودة مرارةً واحدة تغصّ بها النفس، حتى بت لا أميز بين الوجعين في داخلي، كان معنى هذا أني مازلت على قيد الحياة لأواصل البحث عن السعادة والراحة والتي أصبحت أفهمهما ببذل المزيد من الجهد والكدح، واليوم وسنواتي الثلاثون توشك أن تنصرم، لابد أن تكون علامات الاستقرار قد أصبحت ضرورة رغم عدم تحقق كامل الهدف الذي خرجت بسببه مرة أخرى، لكن الشعور بانقضاء العمر ومرور الوقت جعلاني أفكر في سنواتي التي ذهبت وأنا وحيد مسكون بهمّ الحزن المتواصل منذ نعومة أظفاري، فالذاكرة خالية من لعب الأطفال وشقاوتهم البريئة، وعفويتهم الخالصة بطيبها ونقائها، لكنها مليئة بذكريات قاسية ووجع وتعب، ووحدة

ودموع.

الآن تجتاحني رغبة في إحداث تغيير طالما حلمت به وتمنيته. إن السفر والترحال لم يحققا لي معنى كنت أرجو أن أجده في يوم من الأيام ماثلاً أمامي، معنى لصورة واضحة داخل نفسي التي رسخت فيها معاني الخوف والجبن عن مواجهة الأحداث وآثار الهروب أمام صرامة الواقع والتغييرات. فنبع السؤال: هل أنا جبان؟ إذن لماذا الهروب والترحال المتواصل؟ ظننت سفري المتكرر خوفاً قابعاً داخل نفسي ووجداني يحركني. ظننت أن ما كنت أفعله ضرب من ضروب الهزيمة التي مضت بسنوات عمري. لقد نسيت في غمرة مراجعاتي أموراً حققتها بفضل ترحالي وتغربي والتحاقي بالجندية. نعم ظننت أن حياة الجميع رعي للأغنام وزرع للأرض وارتشاف عسل النحل على سفوح الجبال وليس أكثر، وحسبتُ أن من يملك هذه الأمور يملك السعادة كلّها. وسأكون محقاً لو كان الزمن ثابتاً واستمرّ الماضي حاضراً! إن عجلة الحياة وتطورها وزمن التغيّر من الفوضى والتشرّد إلى حقيقة الاستقرار والمؤسسات في ظل الدولة الجديدة بدت علاماتها واضحة. ولكن كان هناك جيل بأكمله عاش وسطها، مضت سنوات حتى أدركوا أسباب سرعة هذا التغيّر المهول.

وكنت دائماً أنظر إلى الأمور ببساطة متناهية، لذلك لم أتفاجأ

بالوقت ولا بالتطور الذي حصل سريعاً.

مضيت في طريق عودتي وأنا أجترّ الأفكار وهي تقذف بي في كل مكان، حتى وصلت. كان الوقت عصراً، والسماء ملبدة بالغيوم، والهواء عليل مصحوب برشقاتٍ قليلة من المطر، والأرض خضراء. وقفت بتجاربي المريرة وقصصي المؤلمة التي صقلتني وعلمتني معاني للحياة فجعلتني رجلاً في عنفوان الرجولة، وقفت أمام بيت والدي الحجر الذي كان يبعث في نفسي ذكريات والدي وإخوتي.

من الألم تنبع الابتسامة ووسط الحزن تنمو زهرة الأمل. وفي غياهب الضمور يظهر التفاؤل. ابتسمت معتمراً بثياب الإنجاز ابتسامة الفرح المكسور والسعادة المنقوصة. ابتسمت وتقدمت نحو باب البيت الحجر. ذلك الباب الخشبيّ الذي تحكي معالمه عمر سنواته الطويلة وملامسات الأيدي التي اصطبغت به في يوم من الأيام والأوجه التي قابلته ومضت بدون عودة!

وقفت أمام ذلك الباب واستمعت لترنيمات المرأة العجوز وهي تطحن الحبوب على الرحى. طرقت الباب، فنادت أن ادخل.

دخلت منزلي وبيتي. رأتني العجوز فهبت واقفة تنفض ثيابها وتهرول نحوي. كيف لا؟ إنّ صاحب الأرض والدار والأطيان يقف أمامها. سلّمت ورحّبت، وصافحتها فانحنت تريد تقبيل يدي إلا أنني سحبتها فأنا من عليه أن يقبّل يديها فهي والدتنا.

جلست في المجلس تحكي الأخبار والأحوال وما آلت إليه الأمور منذ مغادرتي وحتى عودتي.

سألتها أين ابنك؟ فأجابتني: سيأتي مع حلول المساء. ثم استأذنتني لتكمل عملها. أما أنا فقد ذهبت لتفقد البلاد، ومشاهدة الذرة والأشجار. كان المساء يأتي على استحياء، فقد كان وقت المغيب مع رشحة من مطر السماء غاية في العذوبة والرقة. عندما عدت إلى اقتربتْ مني قائلة: إنك تفتقد بلادك؟ نظرت نحوها وهززتُ رأسي بالنّعم. أردفت تقول وهي تحمل بين يديها بعض الخبز لتضعه في التنور: لا أحد يلومك أبداً.

دم امرأة ورجل!

كانت هذه المرأة شعلة من النشاط فقد قامت بطحن الحبوب بالرحى ذات الصخرتين الدائريتين المنطبقتين على بعضيهما. توضع الحبوب من فتحة في أعلا العلويّة منهما، ويتم تحريك الصخرة العلوية بشكلٍ دائريّ فتطحن تلك الحبوب بينهما. أما أنا فقد جلست على كرسيّ يشبه السرير مصنوع من الخشب والحبال. سألتها: أين زوجك يا عمة؟ توقفت عن العمل وصوّبت نظرها إلى الأمام وكأن سؤالي قد أطلق خيالها وأفكارها. أو لعلي أيقظت في ذاكرتها أحداثاً عميقة تنامُ داخلها. ثم نظرت نحوي قائلة: زوجي توفي منذ سنوات طويلة. بعد برهة من الصمت عدت أقول لها: إنك حزينة جداً يا عمة.. فلماذا؟ ثم أين هم أسرتك؟ إنك فقط تتحدثين عن ابنك فأين بقية عائلتك؟ تنهدت تنهيدة طويلة وقالت: إن أقرب الناس إلى قلبي هم من حكم عليّ بالطرد والهرب. ثم طأطأت رأسها وقالت وهي تنظر إلى الأرض: في هذه الحياة لا يعترف بقرارات القلب والحب. لقد تحولت حياتي رأساً على عقب بعد أن وقعت في غرام شاب جاء به أبي ليساعدنا في حصاد أراضينا الزراعية. كان أبي يكنّ له كل احترام وتقدير لأمانته وصبره وإخلاصه في العمل. لعل هذه المشاعر من أبي هي التي شجعته ليتقدم لطلب الزواج مني. يا إلهي! لقد

تحولت حياتنا إلى جحيم منذ ذلك المساء الذي كان يتحدث فيه مع أبي في مجلسه طالباً الزواج بي. فقد تم طرده من بيتنا شرّ طردة. وأهين بشدة بالغة. بل هُدّد بالقتل! كان يفضل الموت على البعد عني، وكنت كذلك أفضّل الموت على البعد عنه. يا إلهي ماذا أقول؟ إنها قصة طويلة عمرها أكثر من ثلاثة عقود. لقد كانت أسرتي تنظر إليه نظرة دونية محملة بالاحتقار. صحيح أنه كان من إحدى القبائل ولكن أهلي يعتبرونهم أقل حالاً في نسبهم، وأقل مكانة.. وأنّ دماءهم غير نقية! لقد كان زواجنا مستحيلاً. وبقينا لياليٍ عديدة نلتقي على سفح جبل قريب من بيتنا. ثم ماذا؟ ثم ماذا؟ في كل مساء كان الخوف يحاصرنا، وتؤرّقنا الخشية من أن ينكشف أمرنا؛ فهذا يعني الموت. ولأننا وصلنا إلى هذه النتيجة لم يكن سوى حلٍّ واحد أمامنا وهو أن نفرّ بحبنا بحثاً عن شرعية تظلل عشقنا، لنثبت اختيارنا وقرارنا رغماً عن كل المتعطشين للحمية والطبقية في ذلك الزمن.

لقد عشنا مطارَدين لسنوات طويلة من إخوتي.. أبناء عمي.. أبناء العشيرة وفرسانها.. يبحثون عن دم امرأة ورجل أعزلين. أتعبونا سنوات في الهرب منهم ومن رابطة الدم التي تحولت إلى نار وغضب. لا شك أنهم لم يعتبروني إنسانة جديرة بالحياة بحرية وكرامة وإنما كائناً مستعبداً وفق أهوائهم ورغباتهم. لم يكن هناك من هو مستعد للدفاع عني وعن زوجي. دمنا مهدور. دون

حماية. دون قانون نلجأ إليه، أو حصن نحتمي به. لا توجد أرض إلا احتوتنا، ولا جبل إلا ضمنا، ولا سهل إلا وطئناه، ولا بئر إلا ارتوينا من مائها. لم يتعاطف معنا أحد، ولم يشاركنا بؤسنا وعذابنا وترحالنا أحد. نعمل بكد وتعب طوال اليوم منذ بزوغ الفجر وحتى غروب الشمس مقابل بعض الخبز والطعام... هل تقول إن هذا الهوان قد خف أو تهادى؟! كلا إن مسيرة الآهات والألم ترافق المنبوذين وتطحن البؤساء؛ فبعد أن رزقني الله ثلاثة أطفال: مسعود وشعبان وقمة، ملؤوا علينا الحياة، وسعدنا بهم برغم الفقر والعوز والألم والهمّ. لكن مصابنا في الحياة عظيم وجرحنا كبير، فقد توفي شعبان وهو في الرابعة من عمره بسبب لدغة ثعبان وهو يلعب في أحد الحقول التي كنت أنا وزوجي نعمل فيها بأجر يومي. أما طفلتي قمة فقد توفيت وهي في عامها السابع بسبب الطاعون الذي اجتاح البلاد والعباد. وفي يوم أليم وقع زوجي من على أحد الجدران الحجرية التي كان يساعد خلالها صاحب العمل في البناء فكسرت رجله وأضلاعه. وسرعان ما أصابته الحمى، أتذكر عندما قال بصوت خافت: يا أم مسعود، إن حياتي معك كانت سعيدة. ولو قدر الله أن تعود الأيام لما اخترت إلا الحياة معك، فبكيت، فرفع يده بصعوبة بالغة ووضعها على رأسي، وقال: لكن ماذا عنك أنت؟ فحبي لك جلب لك كل البؤس والألم. لعلني لعنة أصابتك. فبكيت

وأنا أضع رأسي على صدره وأقبّل يده وأقول له: لا والذي رفع السموات وبسط الأرض وأنبت الشجر وخلق البشر، ما أنت إلا نعمةٌ وخيرٌ وسعادة. رفعت رأسي فوجدته قد أغمض عينيه بهدوء بالغ وخفّة عجيبة لم أشعر بها. منذ ذلك الحين فقدت زوجي وسندي في الحياة، ولم يبقَ بقربي وبجانبي إلا ابني مسعود.
رفعت هذه المرأة رأسها نحوي فرأت دموعي، فقالت: لعل الزمن قد تغيّر يا بني. هذا أنت رجل من رجالات القبائل يحزن لسماع قصتي. بل ويبكي!! نظرت نحوها وقلت: يا عمة: لقد كنت في نعيم بجانب أبيك وإخوتك وأسرتك، وتركت كل هذا من أجل رجل عابر!!
قالت: يا بني.. سأعلمك شيئاً لم تتعلمه في هذه الحياة التي تعيشها. وسأقول لك شيئاً لم تسمعه من قبل في هذه الحياة التي تحيط بك: إنه الحب. الحب يا بني. فإذا كان صادقاً صافياً نقياً والتقت الأرواح فلن يفرقها حتى الموت، لأن الموت ما هو إلا مرحلة بسيطة تمر بنا لينقلنا نحو الخلود الأبدي. هل تعلم أنني منذ أن هربت مع زوجي لم نرتح ليلة واحدة. لقد كانت معاناتنا كبيرة وبالغة وبرغم هذا كنا نضحك من كل مُضحك، ونبتسم في أشد لحظات الخوف، ونضمّ بعضنا بعضاً في أشد أوقات الهلع. وكان كل منا يحلف للآخر أنه لا يشعر بالجوع. فننام وقطعة خبز البرّ بجانب الموقد!!

كنت أرقب هذه المرأة العجوز وهي تعمل، أتمعن في ملامح وجهها أتخيّلها فتاة جميلة، ومن أسرة مرموقة، وأسأل: ما الذي جعلها تنجرف نحو هذا الحب، لعلها الطبيعة الإنسانية التي لا تعترف بالقوانين القذرة التي يضعها الأغبياء، وهي الطبيعة التي ستعبّر عن نفسها مهما وضعت الحواجز الدينية أو العرقية أو الطبيعية حائلاً أمامها. طبيعة إنسانية ولدت مع الإنسان وتنتهي بنهايته. هذا الألم في وجه هذه العجوز، وهذه الخسارة التي تعرضت لها في حياتها بفقدها زوجها وأطفالها. هل هناك ما ستحصل عليه كمقابل؟ أو ما الذي سيعوّضها شبابها وحبها وألمها وأنينها وحزنها المتواصل. كأني أسمع من بين صخور الجبال العالية ترنيمات الأحزان، تتردد أصداؤها في الأرجاء تقول:

هنالك بين تلك السهول تبكي امرأة عجوز

يد المنون

أخذت زوجها وطفلها الصغير

هناك كانت امرأة عجوز تبكي سطوة الزمن

وقوة القدر

الذي لا يحفل بأحد

هنالك بين تلك السهول بكت امرأة حنون

مولودَها العجيب

قبل لحظات مضى بين أغصان الورود
سائراً نحو المجهول.. تاركاً امرأة حنوناً
تطلب عودة المستحيل
هنالك بين تلك السهول ستبكي امرأة الغد القريب
أيام الذبول
وأوقات السواد الرهيب
وستقول: أفتقدك يا طفلي الجميل!!
هنالك بين تلك الجموع امرأة الوعد الحزين
وتاريخ الموت الرهيب
سيسجل بكاءها والأنين
وأنها يوماً دعته لفراشها الوثير
هنالك حيث يضحك الخائفون
والبؤساء
والمتعبون
هناك تسير سوياً حشود الحضارات والأمم
ونبلاء القوم
وأقزام المجتمع
هنالك بين تلك الجموع المهروسة

ينتهي الموت

والخيال

هناك حيث يتوقف الشك

والسراب

وأحلام القوة

والكلام

هنالك رفات طفل صغير وأم عجوز

لم تبدأ احتفالاتها من قبل

هناك بداية الوعد السعيد

لأم عجوز

صاحبها الخوف

والحزن العتيق!!

ليتكما معي!

اليوم نفسي التي استوطنها الألم تريد شريكاً، يبدد أحلام الوحدة، ويشتت هواجس الغربة والسكون القاتل.

أعيش الآن عهداً زاهراً من حياتي حيث استعدت الأراضي كاملة. وبقي معي بعض المال فاشتريت ماشيةً، وأبقاراً للحرث. الأمر الذي ساعدني في استصلاح الأراضي وإعادة زراعتها.

ها أنا اليوم في الأرض أسقيها وأعمل فيها منذ الصباح وحتى الغروب كالأيام الخوالي. في المساء أخلد للنوم وللراحة، وقبلها تعود الذاكرة تجترّ الأحلامَ بوالديّ. أتمتم في فراشي: أبي. أمي. وأردد كي تعتادّ حنجرتي ويألفُ اللسان. أردّد ذكرهما – قبل النومِ –حتى لا أسمح لذاكرتي المتعبة بالنسيان. إنني محرومٌ يفتقد الحنان.

يمضي الزمن ثقيلاً بطيئاً عجيباً وكئيباً، وهاجس الزواج يلازم عقلي كظِلّ.. الأميّة التي عشتها لم تمنعني أن أحسّ بعمق ألم ثقل الأوقات الكئيبة الحزينة وسيرها بتثاقل عجيب،وأن اللحظات السعيدة تغيب بخطو سريع.. ولهذا قررت البحث عن الاستقرار لعلي أجد شيئاً من طعم السعادة والفرح.

لم يمضِ وقت طويل في التفكير بشريكة حياتي المقبلة،، و لم أبحث كثيراً، فقد استقرّ رأيي على تلك التي أهدت إليّ الخبز في يوم

مضى ليس ببعيد.

الأرض والمزارع بدأت تدبّ فيها الحياة. حركة الطبيعة اليومية المليئة بزقزقة العصافير والرياح التي تهزّ الأشجار والثمار، والماء الرقراق وجداوله التي تنساب بين عدد من الممرات الصغيرة، والأرض التي فرَشَتها الخضرة وكست لونها بالبهاء والجمال.

لم يعد ينقص هذا كله إلا الأسرة والأطفال والاستقرار، لنبذ حياة الترحال والسفر. فأخذت على نفسي عهد الالتصاق بهذه الأرض وعدم تركها بعد اليوم. كيف لا؟ وأنا أشاهدها تعطي خيراً كثيراً في زمن قصير، وكأنها تقول: لا تتركني بعد اليوم، فأنت المالك الوحيد المتبقي. كيف لا؟ وأنا أستنشق ذكريات أهلي وأسرتي فرداً فرداً بين ثنايا ترابها. وفي ظلال شجيراتها وانسياب مياهها.. كيف لا؟ وأنا أشاهد أبي وأمي وسط تلك الجبال، وبين السهول، أوَليسا ينامان تحت ثراها. ما هي إلا أيام قليلة حتى عادت السعادة إلى أركان البيت الحجر بعد أن هجرته الاحتفالات لسنوات، فاحتلته الأحزان والأوجاع. بدأت أجمع شتات نفسي وأفكاري، حتى أصل وأدخل حياتي الجديدة هاجراً كل الأحزان والذكريات المؤلمة. لقد عشتها بتفاصيل موجعة ليس من المفروض أن يشاركني الآخرون إياها فقد كانت قدري وحدي.

قلت سأطويها داخل نفسي. أكتمها في صدري. قلت سأعيشها

وحدي. وقد فعلت.

هذا هو مساء الاحتفال بزواجي. مظاهر السعادة تحيط بي من كل جانب. ثم وبعد طقوس الاحتفال بقيت مع عروسي الجميلة في بيتي الحجر. لكنني استأذنتها لدقائق توجهت فيها نحو الجبل الذي يستظل به البيت الحجر. صعدته. وتوقفت في سفحه، عند قبر والديّ. طأطأت الرأس، وترحمت عليهما. خاطبتهما: أمي.. أبي.. ليتكما كنتما معي..

انسابت الدموع..

انقضى زمن طويل، أعيش حياة تظللها القناعة. مودّعاً أياماً من البؤس والحرمان. صحيح أن هذه الأوقات كان يتخللها شيء من الغضب.. شيء من الحزن.. شيء من قلة الطعام.. شيء من النزاع والخصام مع الآخرين لأسباب كثيرة، لكنني كنت أتغلب عليها حيناً، وأحياناً كثيرة أخرج خاسراً. لكنني لم أكن لأسمح لهذه العوارض أن تبدّل داخل نفسي شيئاً من السعادة التي أعيشها، أو تغيّر نمط العيش الجميل الذي بدأ يكسو أيامي. لهذا كله كنت سعيداً قنوعاً وراضياً بما تجري به الحياة.

أصبح لديّ أسرة وأطفال: حمد وعلي وفاطمة. وشعرت بالأبوة وعظم المسؤولية. كانوا كأفراخٍ تحتاج إلى العناية المتواصلة والمراقبة الدائمة للحرص على سلامتهم، وكنت مزهوّاً بزوجتي التي يفيض قلبها حباً وتقديراً لي لتعبي وكدحي.

مضت السنوات مسرعة. أعيش يومي وسط الحقول، وبدأ معها بياض الشعر يغزو رأسي المتعب. وكانت هذه هي الفترة التي التصقت فيها بكل ذرّات ترابها.

قبل غروب شمس أحد الأيام المليء بالحرارة والتعب والجوع خلدت للنوم وأسلمت جفني بجانب شجرة السّدر الكبيرة. استيقظت على صوت زوجتي الحبيبة وهي تحمل بعضاً من الخبز

والماء. إنها تشعر بجوعي. وتعلم بحالة الفقر التي نعاني منها، وتعلم بشح الأمطار وحاجة حقول الذرة للماء، وتعلم مدى قلقي وهمّي وخوفي من خسارة المحصول. عندما استيقظت وشاهدت وجهها الذي يفيض جمالاً وسعادة، أنزلت عيني إلى الأرض فقد شاهدت عينيها مكمناً لكل الأسرار والألم. سألتها عن الأطفال، فقالت: تناولوا عشاءهم وناموا.

قدمت لي ما تحمل من الطعام، وبدأت تناوله. أما حبيبتي فبدأت في السعال بشكل متواصل حتى لكأن قلبها سينتزع من صدرها. أصابتني مرارة وألم كبيران وغطاني الهمّ. رفعت رأسي إلى السماء وقلت: اللهم الطف بحالنا! كانت الشمس تجرّ أذيالها الأخيرة نحو المغيب، آفلة بين الجبال الشاهقة، وبدأ عندها الظلام مهرولاً نحو الأرجاء. أمسكت يدها الرطبة الحنونة وأخذتها نحو البيت الحجر لتخلد للنوم بجانب أطفالها. كان مساءً طويلاً، سرق الأرقُ النومَ من جفنيّ رغم تعبي والإرهاق. وقبل شروق الشمس في اليوم التالي توجهت نحوها فوجدتها نائمة. وضعت يدي على جبينها فكان يتصبّب عرقاً وشعرت بسخونتها. إنها الحمّى إذن.. عندها أدركت أن الأم مريضة! وبحاجة إلى الاهتمام، أمضيت يومي في العناية بها ورعاية الأطفال وأداء العمل اليومي في البيت.

مضى أسبوع وهي طريحة الفراش وحالتها تزداد سوءاً، والحال يشتد ضغطاً عليّ. فالأطفال والأرض ومحاصيل الذرة والبيت

وتنظيفه، كلها أمور تحتاج للعناية والاهتمام والعمل المتواصل. عندما استفاقت حبيبتي وجدت أطفالها يحيطون بها وأنا بجانبها مبتسماً. قالت: هل هطلت الأمطار؟ لم أجبها سوى بابتسامة. أغمضت عينيها اللتين فاضتا بالدموع، ثم نظرت نحوي قائلة: إنك شاحب الوجه، إنك متعب.. أردت أن أحدثها لكن مرارة الألم التي تعتلج في صدري جعلتني أصمت.

قالت: إنك رجل شهم وزوج طيب. قلبُك كبير. عندها كنت غارقاً في الآهات المكبوتة والصمت الحزين.

نظرت إليها بعد برهة فوجدتها قد عادت للنوم. قبّلت جبينها الناصع البياض الذي كان يشتعل حرارة، ونهضت أكمل بعض الأعمال المنزلية.

في الصباح توجهت إلى حقول الذرة وقد كان الجو جافاً والشمس متوهجة. وهو ما يتضاءل معه هطول الأمطار. ثم ما لبثت أن عدت إلى المنزل الحجر، نحو فراش الحبيبة فوجدتها تئن من الألم وآهاتها تمزق أوصالي. تستيقظ حيناً، ويغمى عليها في أحيان أخرى. بقيت بجانبها أضع الخرق المبللة بالماء على جبينها لأخفف حرارتها، أو أعطيها شيئاً من العسل.

أطفالي الثلاثة كانوا بجانبي يراقبون المشهد اليومي. وقبل مساء ذلك اليوم بدأت الرياح تهبّ بشدة وعنف كبيرين فتحدث جلبة وأصوات الأشجار فتغطي الأرجاء، عندما دلفت للغرفة التي فيها

زوجتي وهي تنظر نحوي، وعندما اقتربت منها قالت: ستهطل الأمطار! أجبتها: إنها رياح الصيف محملة بالسخونة والأتربة، قالت: الأمطار ستهطل، لن يترككم الله تعانون! اذهب لتغلق حظيرة الماشية بإحكام، أنا بخير لا تخف عليّ. انصرفت نزولاً عند رغبتها فقط، وبينما أنا أحكم غلق الأبواب كانت تلك الرياح قد صحبت معها الكثير من السحب الرمادية وسرعان ما تساقطت قطرات الماء. ما لبثت أن تحولت إلى أمطار غزيرة. كان وجهي يتهلّل استبشاراً وفرحاً وسعادة. وخرجت في العراء لأتبلل بالماء، أما الصغار فكانوا يتراقصون في فضاء المنزل فرحاً بالأمطار التي تأخرت هذه السنة. عندما عدت إلى الغرفة التي ترقد فيها الزوجة الحبيبة، اقتربنا منها. فشاهدتنا مبللين بالماء، ونضحك فرحاً. وضعت يدي على جبينها الساخن، فقالت بصوت خافت ومرتجف فيمتزج بأصوات الرعد الصاخبة: إنني أشعر بسعادتك داخل نفسي. ثم أمسكت يدي وقالت بصوت يعتريه وهن شديد: انتبه للأطفال ولنفسك. ثم انتابتها حالة أخرى من السعال الحاد، لكنها واصلت قائلة وبصعوبة بالغة: إنني سعيدة بهطول الأمطار، هل ستكفي هذا الموسم؟ رددت: نعم نعم، إنها تهطل بغزارة كبيرة جداً، بدأت الممرات المائية بين تشققات الجبال تسكب المياه إلى الحقول وتهبط للسهول وأحدثت سيولاً مائيةً كثيفة. أروت الأرض. قالت بصوت

مجهد: نعم لقد شاهدت فرحتكم، ليتني كنت معكم تحت زخاته العذبة الباردة. نعم لا شيء يدعو للحزن بعد اليوم. صمتت. ثم أغمضت عينيها المليئتين بالدموع. وكانت الإغماضة الأخيرة!! الآن فقط انسابت تلكم الدموع. إن تلك الجفون تنام الآن ويمكن لتلك الدموع التعبير كيفما تريد. إنها دموع أم ماتت قبل قليل. لم تفكر إلا في أطفالها. وأحبتني بكل ما في قلبها الأبيض من حبّ. حاولت التماسك أمام أطفالي، لكنني أجهشت بالبكاءِ معهم كواحدٍ منهم.

في لحظات فرِحْنا من قلوبنا. وفي لحظات تلتها – بقليل – بكينا من قلوبناً أيضاً!!

الألم الذي لا يتوقف

كان لا بدّ لأوجاعي وأقداري المؤلمة أن تتوقف هنا. لكن الحمى اللعينة التي انتشرت كالوباء ما لبثت أن أوقعت طفلتي الصغيرة فاطمة في فراش المرض. مازلت أذكر كلماتها بتأتأة ممزوجة بالآلام: بابا، أنا تعبانة.. بابا، أنا أحبك. وأنا أيضاً يا طفلتي الصغيرة أحبك. لكن كيف لي أن أعالج تعبك وأنهي شعورك بالآلام؟! إني عاجز يا صغيرتي! كانت فاطمة أقلّ من أمها تحملاً لوطأة الطاعون؛ فسرعان ما ذبلت الصغيرة أمام عيني وسرعان ما رحلت مسرعةً في إثر أمها نحو الخلود! سرعان ما انطفأت عيناها بهدوء وحلّقت روحها سريعاً وراء أمها. يا الله، لو كان هذا الوباء مجسداً لقاتلته بكل صنوف الآلام. وألوان الأحزان.. وقوة الأوجاع.. وبكل آهات المساكين والمفجوعين. كانت فاطمة تنام دوماً بقربي.. كانت تستقبلني بأسئلتها الكثيرة وكلماتها المتوالية الصغيرة على مشارف المنزل عند عودتي، ثم تحكي لي ماذا فعلت في الصباح مع إخوتها، وأين ذهبوا. فاطمة كانت تطلب مني – دائماً – أن أترك الماعز مع صغارهنّ في الحظيرة، لأنّ الصغارَ يفتقدن أمهاتهنّ كل صباح عند إخراج الماشية للرعي.

أموت شوقاً

أحاول أن أجمع شتات أحزاني ودموعي، لكن يصيبني الذهول حين أرى أنّ الموت قد سلب طفليّ الفرح والسعادة. كانا بالأمس يرقصان على زخات المطر المتساقط.. واليوم استحال المطر دموعاً لطفلين لمّا يتعلما كيف يعبّران عن حزنهما وعن أساهما بعدُ – ولا حتى – بالدموع. كأن المطر قد تولّى مهمة البكاء بدلاً من الصغيرين المذهولين الوجلين المنتظرين لعودة أمهما وشقيقتهما الصغيرة التي كانت تلتصق بهما وتلعب معهما، ويتقاسمون حنان أمهم ورعايتها لهم.

لم يكن الموت إلا جزءاً من معاناة مجتمع بأسره، كان يعيش الألم الدائم. أو تستطيع القول: إن الموت هو المعاناة الأخيرة.

إن موت الأم وعشرات آخرين بل مئات إنما كان موجة من موجات الوباء والطاعون الذي ضرب كل منزل في تلك الأرجاء.. وبعد فإن الناس كانوا مشغولين بمصاعبها ومصائبها، برغم ما كانوا يحيطون به أنفسهم من مواساة بعضهم بعضا.

كان كل يوم يمضي تزداد معه قسوة الحياة ويزداد ضيق الوقت والتعب المتواصل.. لم يمضِ يوم إلا ونسمع بموت أحد الأقرباء أو أحد المعارف، أصبح النحيب في كل بيت وبات الحزن يغطي الأرجاء.

في هذه الأيام لم أشعر بالخوف أو بالوحدة فالجميع يشاركني هذه المرارة وهذا الشعور بالحزن..

لقد تعايشت مع هذه المشاعر وهذه الآهات. أخذت على عاتقي كل شيء، أو لم يكن لديّ خيار آخر. أوكلت لطفليّ بعض المهام التي تعلمهما ولا تؤذيهما وتدربهما ولا ترهقهما: عليكما كنس الممر كل صباح. رتبا مكان نومكما. لكنهما لا يفعلان أبداً، يقضيان يومهما في اللعب واللهو، وهذا يشعرني براحة وسعادة فأنا أريد لهما التمتع بكل دقائق الطفولة. عند عودتي في الظهيرة من الحقول أبدأ فوراً أعمال الطهي، تجتمع الأسرة المفجوعة في غرفة، وإذا صحّ فنسميها المطبخ.. نطهو الطعام، أستمع لكلامهما وأراقب سباقهما لمساعدتي، فحمد كان يشعر أنه أكثر الموجودين قرباً مني لأنه هو الوحيد الذي يفهم توجيهاتي. ويشعر أن عليه مسؤولية تنفيذها لرعاية شقيقه. أما عليّ فدائماً بجوار أخيه لا يتركه أو يبتعد عنه. يتعلم منه أحياناً وأحياناً يقع الشجار. لكنهما سرعان ما كانا ينسيان ليبقى في ذهنهما أن قدرهما أن يكونا مع بعضهما ليرعيا نفسيهما.

فهم هذان الطفلان مبكراً جداً المعاناة والحزن الدائم والتعب المتواصل الذي يعتلج في قلبي. ذلك أن هناك أموراً لا يمكنني إخفاؤها عنهما. فمثلاً كانت دموعي تفضحني كلما تذكرت زوجتي الحبيبة، وطفلتي الصغيرة! لكنهما فهما أيضاً أنهما سعادتي

الحقيقية وأنهما يعيشان في ظل شخص يحبهما حباً عظيماً. كذلك عرفا كم نتعب من أجل حياة سعيدة.. عرفا أنني أسعى لأجنبهما الحياة القاسية وأنني أتمنى لهما حياة هادئة مليئة بالطموح والحب. كنت كل يوم أعود إلى منزلي الحجر بعد العمل المتواصل في الحقول فأجدهما قد تعلما شيئاً جديداً، وكان هذا بالنسبة لي وساماً يعلق على صدري في كل يوم. منذ اليوم الأول لرحيل الأم الطيبة والصغيرة فاطمة.. لم يفقدا إلا حنان الأمومة ووجود شقيقتهما. وهو شيء لا أملكه، وهو ببساطة من الأشياء التي لا أنازع للحصول عليها، لأنني أعلم أن علامات الفقد لا بدّ أن تظل منقوشة داخل النفس على الأقل لفترة من الزمن، وأعلم أن علامات الحنين لا بدّ أن تظهر بقوة ثم تبدأ في الاختفاء شيئاً فشيئاً، وأعلم أن جرح رحيل الأم سيرافق صغيريّ سنوات طويلة من عمريهما وسيظل سؤالهما عن شقيقتهما ماثلاً. لكنني أعلم أيضاً أنه ليس بوسعي أن أقدّم شيئاً لصغيريّ، فليس هناك ما يعوضهما تماماً أو ينسيهما أمهما الحنون أو مرحهما مع أختهما الصغيرة. إنني أعلم يقيناً أنني لو استطعت معالجة هذه المشكلة التي تصيب صغيريّ، كنت استطعت علاج ما في نفسي طوال هذه السنوات. ما قيمة الموت إذا لم تمت حنيناً لضحاياه وشوقاً لأحبتنا الذين اختارتهم يد المنون. قيمة الموت كبيرة بما تتركه من آلام لدينا لأنه يخلف في أنفسنا إرهاقاً لا يمكن أن ننساه، ويترك

في أرواحنا أحزاناً لا يمكن أن تلتئم.

أبكي حبي لزوجتي اللطيفة المتسامحة. أبكي حنيناً قاتلاً لطفلتي الصغيرة البريئة. ثم أبكي وشفقة وحسرة على أحزان صغيريّ.

الإخلاص

الوحدة تطبق مجدداً. لكنها اليوم أقسى. مضى وقت طويل على رحيل الأم الحنون والصغيرة فاطمة، لكن لم تمضِ الأحزان من القلوب.

انتهى المرض، وبدأت الناس في التعافي من مصابها. بل تحاول النفوس نسيان الأحبة ضحية ذلك الطاعون. وجاءت الأمطار لتروي الأرض التي احتضنت مئات من الناس الذين ماتوا بسبب الوباء، ولتغسل الفضاء من فيروسات هذا المرض، بل لتقتله، وتنتصر للإنسان الضعيف العاجز عن مقاومته. فكانت خير رسول، يفرح الناس ويسعدهم.

كلما نظرت نحو صغيريّ أدركت أنها الحياة القاسية التي عشتها. كلما شاهدت الألم في عيني طفليّ شعرت بوخز الضمير يهزني من الداخل. كلما شاهدت عرقهما يكسو وجهيهما الصغيرين البريئين، أبحث في ذهني المتعب عن مخرج من جور الحياة ورتابتها القاسية. أسأل، وقد شاهدت خلال أسفاري الماضية أناساً يسعون لتعلم القراءة والكتابة: هل سيأتي يوم يستطيع فيه صغيراي تعلم القراءة والكتابة؟ هل سيأتي يوم أسمعهما يقرآن

القرآن الكريم؟ ويسمعاني آيات لم أسمعها قط في حياتي؟ أم أن حكم حياتنا سيشمل صغيريّ فيعيشا هنا وسط أمّيّة أبيهما. استيقظت من أفكاري وسط نداء أحد الرعاة يخبرني أن الطفلين صعدا الجبل خلف قطيع الأغنام التي يبدو أنها جفلت من أحد السباع. قمت راكضاً خلفهما، فشمس ذلك اليوم بدأت في المغيب.. وأنا أهرول في إثرهما تقذف بي الأفكار في كل اتجاه، وعندما أصبحت في أعلى سفح الجبل شاهدتهما وهما يهرولان بخطواتهما الصغيرة يحاولان إعادة قطيع الأغنام.

هذا المشهد علمني شيئاً عظيماً عن الأطفال وبراءتهما: ببساطة.. الأطفال مخلصون في أعمالهم. الأطفال لا يكذبون أو ينافقون. نحن الذين نعلمهم الكذب والنفاق.

شاهدت صغيريّ بكل طاقاتهما الطفولية يحاولان جهدهما تجميع قطيع الأغنام الذي يبدو أنه تفرّق في الأرجاء، رفعت صوتي أنادي عليهما وأشير إليهما بالعودة إليّ. وعندما وصلا وجدت في عيونهما خوفاً غير مبرر، وسمعت لهاث صدريهما الصغيرين، وشاهدت حبات العرق على وجهيهما البريئين. ابتسمت وقلت لهما: لنعد إلى بيتنا. نظرا نحو بعضهما وقالا: لكن الأغنام، هل نتركها تنام في الجبل؟ قلت لهما: لتنم حيثما تريد. في الصباح ستعود، الآن الشمس غربت ولا يمكننا مطاردتها في الظلام، وسألتهما: لماذا أخذتما على عاتقكما هذه المهمة؟ لماذا لم تخبراني؟

كان الصغيران يحاولان تخفيف الأعباء عني. كأنهما قد علما بحال والدهما المتعب جسدياً ونفسياً.

بينما كنّا نهبط سفح الجبل ونحن نتحادث بشأن مطاردتهما، ويضحكان على بعضهما، أقسمت أن أغيّر حياتهما للأفضل.

الضيفة

هذا العام الأمطار كانت غزيرة.. كست الخضرة الأرض.. الآبار امتلأت بالمياه.. والأراضي الزراعية أثمرت غلالاً وفيرة. الطبيعة تتصالح مع الناس.. تخفف مصابهم.. تريد فرحتهم وسعادتهم. كنت كل يوم أشاهد ما أملكه من أغنام وأبقار وجمال. وهي سارحة تأكل من خير الأرض الوافر.. وأشاهد طفليّ يمرحان ويلعبان موفورَيّ الصحة سعيدين بظلي. أنسى كل شيء فأنغمس في مشاتلي الزراعية.

في أحد الأيام الجميلة وصلت إلى المنزل الحجر امرأة بصحبة طفل في حالة يرثى لها. وهرع نحوي أحد الرعاة يخبرني، فتركت ما في يدي وصعدت نحوها. لم تكن السعادة تكفي لتعبّر عن فرحتي، فقد كانت هذه الضيفة أختي من أمي.

لم يكن لزيارتها أي قيمة معنوية قد تساعدني في استشفاف ملامح عن والدي وأسرتي، ولم تكن تحمل أي ذكرى حتى لأمي، فقد عاشت هذه الضيفة في ظل أسرتها وعشيرتها التي تنتمي لمكان آخر منذ نعومة أظفارها، وبالتالي فإنها لا تعرف شيئاً مميزاً قد أكتشفه منها.

لكن قيمة هذه الضيفة عظيمة من جانبها الأخلاقي والأسري، فهي المحتاجة الآن لظل أخيها، فقد جار عليها الزمن وفتك

المرض بعدد من أفراد أسرتها بالإضافة لسفر زوجها الطويل، هذه الظروف خلفت فقراً مدقعاً، وهجرة للكثير من أهالي تلك الديار. عندما التأم شمل العائلة على العشاء جعلت تشكو حالهم وما أصابهم من فقر، بل إنها طلبت مساعدتي. قلت لها: إنك في بيتك ووسط مزارعك، أقيمي أنت وطفلك ما طاب لكما البقاء.

انقضت أشهر عديدة على وجودها وطفلها في حمايتي وفي كنفي، تنعم بالراحة والعيش الكريم والحياة الهادئة. وننعم نحن بوجودها وطيبتها. مع مرور الأيام بدأت أفكر في سبل الوفاء بما سبق أن أقسمت عليه وهو أن أغيّر حياة طفليّ إلى الأفضل، وأن أحاول تعليمهما، ومع هذه الحال من التفكير تأكد لي أن الأوضاع هنا تسير نحو التغيّر ببطءِ شديد جداً. ووجود هذه الأخت وصغيرها وما شاهدته طوال شهور بقائها الماضية من حرص على صغيريّ ومعاملتهما برحمة وشفقة وحب وعدم تمييز في التعامل بينهما وبين صغيرها، بل إنها كانت تشكوهما دائماً إليّ بسبب عدم تناولهما الطعام. هذه الأجواء سمحت لي أن أتخذ قراراً مصيرياً، أولى خطواته مؤلمة لأطفالي لكنها خطوة هامة جداً. لقد قررت السفر نحو أرض جديدة تكون فرصة التعليم فيها متاحة. وسبل العمل والرزق متيسرة ومستمرة، وليست موسمية تبعاً لحالة المناخ والأمطار. لم أستمر طويلاً في التفكير، فقد عقدت العزم

على التوجه إلى العاصمة الجديدة، على أن مسيرة التعليم قد بدأت في معظم المدن الكبرى، لكن لم يكن متوقعاً أن تبدأ قريباً دور وكتاتيب للتعليم في المناطق النائية. لذلك كان قرار السفر والانتقال من أجل تعليم أطفالي قراراً لا عودة عنه ولا يحتمل التردد أو التسويف. إنني أعلم أن كثيراً من الهجرات التي انطلقت من تلك الأرجاء نحو المدن الحضرية، كان من أبرز أسبابها شح الطعام وحالة الفقر السائدة، والأمراض التي كانت منتشرة والبحث عن مصادر جديدة لكسب القوت والأمن. أما أنا فقد كانت أسبابي مختلفة نوعاً ما، فأنا أعيش حياة مستقرة نسبياً، ولم يكن لديّ ما يدعو للهجرة والسفر بشكل ملح، إلا قضية تعليم طفليّ، والبحث لهما عن حياة أكثر استقراراً ورفاهية، وأنا أعتبر أن هذا من أبسط الواجبات التي علي تقديمها إلى ولديّ، قد يكون هناك سبب آخر أقل حدة وهو رحمتي وشفقتي بهما وهما المفجوعان بفقد أمهما وشقيقتهما. إن حالة الحزن التي تكسوهما كانت ماثلة أمام عيني في كل لحظة أراهما فيها؛ ولذلك وجدت أن تغيير المكان سيساعدهما على نسيان صورة أمهما الحنون وشقيقتهما الصغرى وبالتالي الخروج من حالة الحزن التي تظهر في عيونهما البريئة التي تحمل ألف سؤال وسؤال.

الآن أصبح قرار السفر والرحيل أكثر جدية، وفي كل مرة أدخل فيها البيت وأجد طفليّ قد ناما بعد تناولهما طعامهما، وسهر

العمة على راحتهما، كنت أقترب من الوجع الذي يظهر لي في كل مرحلة من مراحل حياتي، ذلك الوجع العميق المتأصل داخل روحي والمتمثل في حبي لهذه الأرض وعدم رغبتي في مغادرتها، وتلك الظروف التي تظهر بين وقت وآخر لتدفعني للابتعاد عنها. وإذا كان الماضي قد انتهى بأسفار ساعدتني أن أقف على قدمي في هذه الأرض قوياً، فإنني اليوم وأنا في منتصف الأربعين أبكي سبباً مختلفاً يجبرني على ترك هذه الأراضي الزراعية وهي في أبهى حلة مكسوة بالاخضرار والمراعي الخصبة والمياه الوفيرة وهي الحياة التي تمنيتها دائماً. إن القناعة التي تظلل القلب تقول: تكفيك بضعة أعوام مضت وأنت هنا، وقد حلّ قدر الرحيل ثانية وعليك الاستجابة.

كان يمكن لي أن أتجاهل حاجة ولديّ إلى التعليم. كان يمكنني أن أؤثر حبي وما أتمناه دائماً. ففي ذاك الزمن عاشت الأسر مع أطفالها دون حظ من التعليم، وكانت المهمة الأساسية لكل أسرة آن ذاك تنحصر في تعليم أطفالهم الرعي والزرع وطرق الفلاحة وما يحتاجونه من سبل للتعامل مع الأرض من أجل أن تجود بخيراتها. وطفلاي قد مارسا هذه الأمور جميعها. لكني أتمنى أيضاً أن يتعلما شيئاً جديداً وهو إجادة القراءة والكتابة، بل والارتقاء في سلم العلم والمعرفة لذلك لم يبقَ أمامي إلا أن أخبر أختي بأفكاري، وأسمع رأيها؛ فهي - مبدئياً، وحتى أستقر

وأجد المكان الملائم – ستظل مع طفليّ فترة من الزمن قد تطول وقد تقصر. فتحت معها الموضوع فوجدت منها الترحيب بأن تقوم مقامي، وكنت سعيداً وهي تقسم أنها تراهما مثل طفلها ولا تفرق بينهم أبداً، وأنها تشعر بالامتنان تجاهي وتجاه ما قدمته من معروف لها ولطفلها، لذلك تجدها فرصة لترد جزءاً من معروفي وجميلي. علماً بأن ما قدّمته كان واجباً خالصاً. عندها عقدت العزم على السفر وبدأت تجهيزاتي لهذه الغاية. وطلبت من صغيريّ انتظار عودتي لأخذهما للحياة الجديدة.

المجتمع الجديد

الرحلة الآن لم تكن كسابقاتها بل إنها أكثر غموضاً وخوفاً وأبعد مسافة وأكثر مشقة. تبدأ بصعود الجبال الشاهقة. هذه الطريق التي تركت الأقدام عبر السنوات آثارها في تشققاتها العجيبة. علامة على إصرار الإنسان وكفاحه من أجل البحث عن الأفضل. طريق يسير فيها الإنسان والحيوان من الأبقار والأغنام والجمال، صعوداً وهبوطاً في رحلات يومية مثيرة. كانت الرحلة تستغرق نحو يوم بأكمله للوصول إلى سفوح الجبال، حيث أجواء البرودة وملامسة السحب. لكن لم تكن هذه هي المحطة المقصودة أو المراد بلوغها. رغم ما كان هناك من تجمّع للناس، حيث يمضون أيام الصيف على تلك السفوح منعّمين بالهواء البارد مبتعدين عن حرارة السهول وقسوة الأجواء الجافة. ويتكرر المشهد عكسياً أيام الشتاء حيث يغادرون الجبال هبوطاً نحو السهول الداخلية بحثاً عن الدفء واعتدال الأجواء. لكنها ميزة لم يكن الجميع يحظى بها. أو يمكن للجميع التمتع بها. وبطبيعة الحال، هذا الوضع يتوافر لفئة دون أخرى. ولأناس دون آخرين. لقد كان الإنسان في كل الأحوال باحثاً عن رفاه نفسه.

واصلت مسيرتي نحو المدينة التي بدأت تزدهر وتتوسع، منذ أن احتواها جيش التوحيد وقمع تطلعها الفوضوي. بعد أن انتهى

التسلط الفئوي وما سبّبه في المجتمع من صراعات وتآكلات عجيبة. في هذه البقعة عاش منذ القدم رجالات قبائل غاضبون مزقوا كيان الإنسان سنوات طويلة. وبرغم ما يدعونه من قوة، وتحكمهم المطلق بحياة تلك المجتمعات، وقفوا عاجزين عن حماية أنفسهم ومدينتهم من الغزو والاستعمار التركي عندما هاجمهم. فاستوطن الغازي أرضهم وتسلط على رقابهم لسنوات ليست قليلة من الزمن! واليوم فإن الجموع لا تخفي فرحتها وهي تشاهد زعماء لطالما داسوا تطلعاتهم، وكسروا آمالهم يذهبون وقوداً للتاريخ. عندما كنت أتجول وسط السوق كان من السهل أن أقرأ في وجوه الناس سؤالاً عن الجديد القادم، وأملاً كبيراً في أن يكون أفضل حالاً من حكم النظم القبليّة.

مكثت بضعة أيام، ثم غادرت مدينة السحاب نحو العاصمة الجديدة الخارجة من وسط الصحراء أركب في صندوق شاحنة محملة بآخرين. رحلة طويلة استغرقت وقتاً وكثيراً من الجهد.. مخلفاً هناك في أغوار السهول طفلين بريئين. لا أعلم عن حالهما شيئاً. كنت أتمنى أن تنقضي الأيام سريعاً، وأحقق ما أصبو إليه وما أتمنى.

عندما وصلت العاصمة فاستوقفتني الأرجاء المختلفة والمعالم الجديدة التي حركت المدينة المرهقة الناهضة نحو الغد والتي خرجت لتوها من حرب التوحيد والانتصار، وبدأت لتوها تخطو

نحو المستقبل؛ تظللها الشرعية الجديدة. الأشكال.. الطرق.. اللهجات.. العادات.. كلها مؤشرات للتغيّر. الخوف.. الخوف هو ما سيطر عليّ وما تملك جوانحي. كيف سأجد طريقي؟ بل والتعاطف في المجتمع الصحراوي القاسي. كيف سأجد من يجيب عن تساؤلاتي؟ لكن بعد الجلوس لبرهة عدت أضحك. وأين وجدت الراحة من قبل؟ بل أين كنت أجد فرصة العمل دون استجداء وتعب؟ على أنه كان بجانبي بعض من رفاق الطريق. وفي تلك الأمسية كان الحديث بيننا عفوياً. كأنه يحقق لكل منا شيئاً يحتاجه في المجتمع الجديد، أو يُشعر كلاً منا بالأمان. وبدا أن على وجه كلّ منّا سؤالاً كبيراً. ماذا بعد؟ فنحن قد وصلنا العاصمة، ولكن أين يمكن لنا أن نجد عملاً ملائماً؟ سؤالٌ لا يحتاج من أحد أن يصرّح به.. لأن كلاً منا كان يشعر به داخله.
قال أحدهم: إن أحد أقاربه ذهب إلى مدينة نائية جنوب العاصمة ووجد عملاً في الجيش هناك، وأظنها قريبة من هنا. التفّ حوله الرفاق الآخرون.
قال الثاني: قد سمعت عنها. وأنا لم أحضر إلى هنا إلا من أجل الذهاب للعمل فيها.
تساءل آخر: إذن لماذا لا نذهب إليها مادام فيها الجيش. حيث يمكننا العمل فيه كجنود، فكلنا قد خدمنا في الجيش سابقاً.
أجاب رابع: سأذهب للسؤال عنها، وكيف يمكننا التوجه إليها؟

كل هذا وأنا صامت ساكن، أستمع لنقاشات وحوار رفقاء الطريق. وما هي إلا لحظات حتى حضر صديقنا برفقة أحد سائقي السيارات، وقال: إذن اتفقتم على وجهتكم أخيراً. أنا مستعد لإيصالكم إليها. ولكم كانت دهشتنا كبيرة وغريبة عندما أخذ ذلك الرجل مبلغاً رمزياً منا نظير توصيلنا لأنه علم بضيق حالنا.

في الطريق كانت الأتربة كثيفة جداً، ولا ترى ما أمامك وكانت الحرارة مرتفعة. واللهيب الساخن في الجو يخنق الأنفاس ويزيد قلقها وغضبها. كانت هذه الأجواء تترك في ذهني دوماً سؤالاً: كيف يتحمل الإنسان هذه المعيشة القاسية؟ إذا صدق أن إنسان هذه البلاد قاسٍ في تعامله فلا عجب أمام هذا الواقع المناخي العنيف. عندما وصلنا محطة السيارات على مدخل المدينة الصغيرة والتي هي أشبه بقرية كبيرة، كانت تقف بعض السيارات. وفي غرفة كبيرة تم بناؤها من الأخشاب المهترئة، يجلس السائقون وبعض الركاب. يتناولون شيئاً من الطعام الموجود أو يحتسون الشاي. توجه رفاقي – وأنا ألحق بهم – إلى هناك، لكنني شعرت أنهم يتهامسون فيما بينهم، وقد غاب أحدهم. وما هي إلا لحظات حتى فقدت اثنين منهم. وعندما عدت بعد الاغتسال كان الوحيد المتبقي هو الآخر قد اختفى! برغم أسفاري المتعددة لم أشعر بخوف وخشية مثلما اجتاحتني هناك. لقد انتابتني مشاعر

الرهبة والوحشة. وبعد أدائي صلاة العصر بقيت في المصلى الصغير المبني من بعض اللبن والأخشاب. عقدت العزم أن أقضي ليلتي هنا. كان قلقي عنيفاً وكبيراً وطاغياً، أنساني أحاسيس الجوع التي تقرص جوفي كل ثانية. في هذه اللحظات العصيبة المليئة بالقلق والخوف أيضاً اقترب مني رجل مسن علمت فيما بعد أنه يدعى أبا خالد، وجلس بجانبي وقال: إذن رفاقك قد غادروا متناسين وجودك. لكن لماذا؟ ابتسمت وقلت له: إنني لا أعلم السبب. فقال: وهل كنتم تبحثون عن شيء؟ قلت له: إننا جميعا قد قدمنا بحثاً عن العمل. ضحك وقال: إذن لماذا رفاقك غادروا بدونك؟ قلت له: إنني فعلاً لا أعلم. فقال: هل لك قريب هنا ترغب أن أوصلك إليه؟ قلت له: لا، ليس لي إلا الله وحده في هذا المكان. وإني أسأل: هل سيُسمح لي بالنوم هنا؟ فقال: إذن تعال معي إلى منزلي أنت ضيفي هذه الليلة. شعرت بالامتنان له، وقلت: إنني أشكرك ولكنني أرغب أن أنام هنا فلعل رفاقي يعودون بحثاً عني فيجدونني هنا. ضحك أبو خالد وقال: كم أنت طيب (وابن حلال). إن رفاقك قد قرروا التخلي عنك. لقد سمعناهم جميعاً وهم يتفقون على التسرُّب دون أن تشعر؛ لأنهم خجلوا أن يقولوا لك هذا. لقد ذهلت و لم أعرف سبباً يدعو رفاق السفر والطريق لتجاهلي وقد صمت تماماً و لم أعرف بماذا أجيبه. لكنه أضاف قائلاً: ألم تحضر هنا من أجل العمل. قلت:

نعم. قال: إذن تأتي معي وفي ضيافتي هذه الليلة، وغداً صباحاً نذهب إلى وسط المدينة لي صديق قد يستطيع أن يساعدك ويجد لك عملاً. كنت – وأنا أغالب أفكاري في تصرف رفاقي تجاهي – أشعر بفرحة كبيرة أيضا لكرمه ووعده بمساعدتي، عندما دلفت منزل الرجل الطيب، كان مبنياً من الطين. وظهر جلياً أنني بصدد تعلم أمور جديدة ولهجات جديدة. أطفاله التفوا حولي يرحبون بي، ويسألهم عن الخراف والجمال. نمت تلك الليلة، لكنني كنت أحاول أن أجد لرفاقي العذر في مغادرتهم بدوني. أو كنت أحاول التغلب على الغصة التي في حلقي إثر نسيانهم رفقتي وأُخُوَّتي لهم. قبل شروق شمس اليوم التالي كنت مستيقظاً برغم إنهاك جسدي والتعب الذي يتملكني. في الحقيقة لم أنم إلا ساعات بسيطة جداً، فالقلق يجتاح نفسي ويغطيني. عندما التقيت أبا خالد بعد بزوغ الفجر قلت له: إنني قد أثقلت عليك وأرغب أن تسمح لي أن أعود إلى المحطة. حتى يسمح وقتك لتأخذني إلى من قد أجد لديه عملاً، فقال: الله يهديك. لا تنسَ، إنك ضيفي. وضيف عزيز. دلفنا المجلس وأحضر أحد أبنائه بعضاً من حليب الإبل، وقدم آخر بعضاً من التمر، وجعلنا نتناول فطورنا، وهو يسألني عن دياري وعائلتي، فقصصت عليه ذكرياتي، فانشرح صدره وسعد كثيراً جداً عندما علم أنني قد عملت بالمجال العسكري.

انطلقنا إلى مركز للشرطة في المدينة النائية ودلف أبو خالد وأنا بصحبته لمدير هذا المركز حيث قدمني إليه، وقال له: هذا أخي. أريد له عملاً عندكم. عملاً جيداً وراتبه جيد. ضحك مدير المركز وقال: إنك تأمر ولا تطلب. وتم تعييني بوظيفة حارس على التوقيف، وهو عبارة عن غرفة يتم فيها حجز وسجن المخالفين أو المشتبه بهم أثناء التحقيق وقبل نقلهم للسجن الرئيسي.

بكل بساطة كنت في اليوم التالي قد وجدت عملاً، كأن الربّ أراد أن يعوّضني عن الألم الذي يعتلج في صدري من زملائي وأصدقاء الطريق، أنا متأكد أنهم أيضاً قد وجدوا أعمالاً وشقوا طريقهم نحو المستقبل، لكنني لم أكن أتخيل أن تُمضي أياماً مع شخص تضحك معه وتنشأ بينكما مودة وألفة ومحبة، وتتشاركا الطعام والزاد والماء وفجأة كل هذا يصبح لا قيمة له، دون وجود حتى أدنى سبب.

لكنني لا ألومهم أبداً، إنني أقدر تماماً قرارهم، لا شك أنني إنسان سيئ ولا أستحق صداقتهم، لا شك أنني هكذا دوماً محكوم عليّ أن أظل بلا أصدقاء، بلا أحبة وبلا رفاق.

أمضيت وقتاً في هذه الوظيفة والتي أقوم بمهامها على أكمل وجه وأتسلم راتباً شهرياً قدره 140 ريالاً وهو مبلغ كبير بمقاييس ذلك الزمن. كان أبو خالد رجلاً مهذباً جداً وكريماً جداً. لن أنسى وقفته النبيلة معي، وأنه سبب هذه الوظيفة التي أنا فيها.

مدّ لي يد العون دون سابق معرفة. ودون واسطة مؤذية أو غير مؤذية. إنه إنسان تعاطف مع أخيه الإنسان. بكل بساطة ودون تعقيد. مثال أبي خالد مثال إنساني نادر جداً، وفعل دافئ أن يمد لك أحدهم العون والمساعدة دون أن تطلبها، لأنه علم بحالك الضيق فقط، دون أن ينتظر منك رداً للجميل أو المعروف.

لهيب الاشتياق

ما إن استقر حالي وظيفياً ونفسياً، حتى أصبحت أفكاري تطير نحو الصغيرين، وفي كل لحظة تزداد أشواقي إليهما.. في كل ثانية يقتلني الحنين إليهما.. في كل يومٍ تتعاظم مخاوفي وخشيتي عليهما، فأنا هنا لا أعرف جديدهما، ولا تصلني أخبارهما. لقد ظهر شرودي الذهني الدائم، وتفكيري المتواصل، وانفرادي المستمر. فوجئت يوماً بمدير المركز (أبو متعب) يباغتني قائلاً: إنهما الصغيران. أليس كذلك؟ لم أجبه، لكنه قال: اذهب وأحضرهما فوراً. سأعطيك إجازة لمدة عشرين يوماً. نظرت نحوه مذهولاً. هل هذا الذي يقف أمامي هو مدير المركز الغاضب دوماً؟! المكروه من جميع من يعمل معه. لكنه ردّ على أفكاري بابتسامة وهز رأسه قائلاً: أمازلت هنا؟ انصرف سريعاً من أمامي قبل أن أغيّر رأيي. مضى ما تبقى من ذاك اليوم في البحث عن سيارة لتقلني، فاستعداداتي لهذا السفر كانت سريعة، وأيضاً بسيطة جداً.

طوال الطريق، كان الحنين إلى الطفلين قاتلاً؛ لأن هذه الرحلة لهما ومن أجلهما. ولذلك كنت متلهفاً للقائهما، وكانت كلما قصرت المسافة زاد الشوق والحنين إليهما. لقد ضحكت كيف كانت أشواقي لبلادي طاغية وعنيفة كلما عدت إليها بعد سفر.

واليوم فإن الشوق إلى الصغيرين طاغٍ جارف لم يسمح لي حتى بالتفكير في الأراضي الزراعية والأنعام والمواشي.

كان الزمن شتاء والوقت ظهراً. و لم تكن الشمس قاسية كما تفعل بلهيبها أيام الصيف، بل كان الهواء العليل مصحوباً ببعض البرودة، والجو في غاية من الروعة.. لكنني مازلت أتذكر أن ذلك الظهر كان أقسى يوم مرّ بي وأعنف يوم، عندما وصلت بلادي فوجدتها خالية لا حياة فيها! جعلت أضرب الأرض: تبّاً لهذا الحال المتكرر الذي يصادفني كلما غادرت هذه البلاد أعود فأجدها خربة مهملة. أجد في انتظاري كمّاً هائلاً من المصائب والمصاعب. ولكنني كنت في شغل عن مثل هذا الحزن، فالطفلان ليسا هنا. بل إن الأرض مهجورة وأبواب البيت الحجر موصدة. ولا أثر للإبل أو الأغنام والأبقار. ومخازن الطعام في "السفلية" خالية تماماً من الحبوب، والأرض لم تزرع و لم يتم حرثها منذ زمن. وضعت يدي على رأسي، كان العرق يتصبب من جبيني وما من شمسٍ ولا حر.. علمت أنني لو بقيت بهذا الحال فإن رأسي ستنفجر. أين الصغيران؟! أين فلذتا كبدي؟! ماذا حدث لأختي والعاملين؟! ظللت أبكي وأؤنب نفسي: لماذا ذهبت وتركتهما؟ أي قلب قلبي؟! أي أب أنا؟! لقد تخليت عنهما. لقد أهملتهما. لطالما عرفت أن القلوب قاسية كالحجر، فلماذا تركت الصغيرين بينهما؟! كان يمكنني أخذهما معي. كنت أصعد الجبل

وأنزله. كنت أهبط سفح الوادي وأصعد إلى البيت الحجر.. كنت كمن يبحث عن شيء أضاعه. عن كلمة. عن أمل. عن أي شيء. ووسط ذهولي وحيرتي، شاهدت أحد الأقرباء يأتي نحوي فهرولت إليه. وما إن وقفت أمامه حتى قلت في نفسي: يا الله لا تجعله يسمعني سوءاً حدث لطفليّ. فوجدته يبدأ في الحديث بعفوية وبلا مبالاة يسأل عن الصحة والأحوال ووقت الوصول. فأسكتُّه وسألته عن الصغيرين، فقال باستغراب كبير: إنهما قد ذهبا مع عمتهما إلى بلادها. وقد باعت بعض المواشي الواهنة أو المريضة وأخذت المتبقي من الإبل والأغنام والأبقار. لقد فعلت هذا بعد رحيلك بأقل من شهر. أسندت رأسي قليلاً. ثم نظرت في وجه الرجل وغادرته، فلحق بي متسائلاً: إلى أين؟ ألم تكن تعلم برحيلها؟ لقد قالت إنك أنت من طلب منها ذلك. توقفت ونظرت إليه. كنت أريد أن أوضح له أن كلامها غير صحيح. لكني عدت أواصل طريقي. لعلي شعرت أنني قد أضعت الكثير من الوقت!

أي قلب

كنت أسير متجهاً نحو الجبال حيث تسكن أختي. كنت أهبط سفوحاً. وفي بقعة أخرى من هذه السلسلة الجبلية الشاهقة سأعود لصعودها. لكن لم يمضِ وقت طويل حتى حلّ الظلام. وكسا الأرجاء. كنت محتاجاً جداً إلى الراحة والاسترخاء. توقفت بجانب سفح جبل حيث قررت النوم هناك. وما إن وضعت رأسي حتى بدأت أسمع أصوات الذئاب وزعيق البوم. كنت أضحك غير آبه أو خائف، بل إنني جلست أراقب وذكرى حزينة تطوف بي: لسنوات مضت.. كنت فيها طفلاً غضاً.. صغيراً.. حائراً.. ضائعاً.. لكني كنت طفلاً محظوظاً أن تلقفتني يدا الرجل الراعي، وانتشلني من الوادي السحيق. هذه الأجواء تشبه تماماً تلك الأيام السحيقة الماضية.. لكن الظروف متغيّرة جداً. القلب نفسه، والروح نفسها، لكن اختلفت المشاعر والأحوال، ففي الماضي كان الخوف يجتاحني، والرهبة تبتلع آمالي، ولا هدف أو غاية، إنما هو ضياع. اليوم أنا قوي إنما خائف خوفاً يختلف عن خوف الماضي. خشيتي اليوم ليست على نفسي إنما على صغيريّ، على طفليّ. ولقد امتزج بهذا الخوف شوق عارم لوجهيهما البريئين ولضحكاتهما الصافية وكلماتهما البسيطة. أما خوفي في الماضي، فقد كان خوفاً من انتهاء وجودي في هذه الحياة.. وفي كلتا

الحالتين فإن مخاوفي الماضية أو الحاضرة كانت مبررة، ولها أسبابها العميقة الوجيهة.

لم تشرق شمس ذلك اليوم إلا وأنا وسط مرتفعات الجبل الكبير في طريقي نحو ديار أختي. أمامي معابر. منحنيات. مرتفعات. وعقبات. وكلها دروب إنسان ذاك الزمن لا بدّ أن أسلكها. ليس هناك خيار آخر سوى السير، ومواصلته. هذه مهمة، بالنسبة إلى شخص مثلي تعوّد الكدح والمشقة وألفَ التعب والأنين. وهي ليست قضية كبيرة. إن المشكلة هي في هواجسي.. خوفي.. خشيتي على صغيريّ. المشكلة هي في تلك الأفكار التي تعصف برأسي وتمزقني.. هي في كل الأفكار السوداء التي تحيط بي وتشلّ تفكيري.. المشكلة في نفاد صبري وهرولتي، وفي مرحلة الإعياء التي بلغتها.. أضرب نفسي بسياط ألم الذات، وأوجعها نقداً وتجريحاً، فإهمالي لا يصدق، وجريمتي بحق طفليّ عظيمة. كل ما أرجوه.. كل ما أتمناه.. كل ما أصبو إليه، هو أن أصل إليهما.. أن أجدهما بخير.. بصحة.. وسعيدين. كان مطلبي بسيطاً، لكنني كنت أعرف أنه مطلب هائل.. كبير. كنت أعلم أنني لو وجدتهما كما أحب، فإن هذا معناه أن الربّ معي.. أن الله بقربي.. هكذا كنت أقول: إنني يا الله سأعرف قربك مني الآن.. سأعرف يا الله حبك لي الآن.. سأعرف عظم رحمتك الآن.. فأمامك يقف إنسان أميّ. لم يقرأ آية قرآنية قط. ولم يسمع حديثاً نبوياً قط.

أمامك يا الله إنسان يجهلك، وبرغم هذا يعبدك. إنسان لا يعرف سوى أنك الرب الخالق، ولا شيء آخر. وبرغم هذا يتضرّع إليك أن تساعده وأن تساعد طفليه. إذا كانت شمس ذاك اليوم الطويل الكئيب قد شارفت على المغيب، فإنني أيضاً قد شارفت على الوصول وهذه هي منازل أهل وقبيلة أختي أمامي. حثثت الخطى مهرولاً وساعياً، فالفاصل الزمني يضيق، ولحظات معرفتي اقتربت. وأشعر أن في صدري قلباً يكاد يخرج من بين أضلعي لشدة تسارع ضرباته، ولشدة تشوقي لمعرفة ومشاهدة طفليّ. كان الزمن كئيباً. وكان المكان يعج بالفوضى. أو أنه ذهني. لم يكن هناك نور. كل شيء ظلام. ليس هناك سوى نور خافت هو المكان الذي أضع فيه ناظريّ، وما عداه ظلام دامس. كنت كحيوان مفترس تسمع لهاثه، ومن شدة عطشه وجوعه أخرج لسانه. تسمع أنفاسه الحرّى. وسخونة محيطة ترافقه. الغضب بين عينيه كبير. أسنانه بادية. متوثب للانقضاض على أي شيء يهتز أمامه. عندما توقفت أمام منزلهم، كنت أحاول أن أتمالك نفسي.. أن أكون أباً صبوراً، فأجهشت بالبكاء. إنني لا أسمع صوتاً لطفلي. مسحت عينيّ بغضب بقبضتيّ.. ضربت الباب بقوة، ففتح زوج أختي الباب. شاهدني ففوجئ تماماً لكنه كان يرحب وأدخلني فوراً إلى غرفة قصيّة داخل المنزل. كانت في تلك اللحظات أختي تمسد شعر ابنها بالزيت وتمشطه بينما هو يتناول

العسل والخبز البرّ.. نهضت من فورها ترحب أيضاً وتسلم. لم أعد أذكر شيئاً سوى أنني جعلت أجول بنظراتي في المكان فلا أجد أثراً لطفليّ. وجهت نظري إليها بشدة واقتربت منها وقلت: أين طفلاي؟ قلتها صارخاً بعنف لكنها مليئة بالخوف. تراجعت وكأنه خرج مع كلماتي أنفاس ملوثة، أو رائحة كريهة، وقالت من فورها: إنهما هنا. هنا اطمئن. نظرت إليها. وكأنها قد أخمدت ناراً تتلظى في قلبي منذ أشهر. صرخت: أين هما؟ أين هما؟ فقالت: إنهما يدخلان الأغنام الحظيرة. عندها وقع نظري على طفلها.. الوسيم المنعم.. إنه في سنهما تماماً.. إنه الطفل الذي جاءت به إليّ قبل عام مريضاً. بعد فاصل بسيط من الصمت خرجت مسرعاً ولحقت بي. توجهت نحو حظيرة الأغنام- وقد حلّ الظلام - فسمعت ضجيجاً خافتاً، وعندما اقتربت سمعت صوت أحد ولديّ يقول: لقد تعبت. سنكمل التنظيف في الصباح، فيرد عليه الآخر قائلاً: أنت اجلس أنا سأكمل العمل. إن عمتي ستوسعنا ضرباً في الصباح إذا لم نكمل العمل. أنت اخلد للراحة. أنا سأكمل العمل.. فينهض.. ويساعد شقيقه.. كانت أختي بقربي. نظرت إليها ثم تركتها، وتوجهت إلى الطفلين.. يا للهول كانا شاحبين تماماً.. كانا جائعين.. يلبسان خرقاً ممزقة. عندما وقفت أمامهما أصيبا بذهول.. ارتجفا.. وعندما تيقنا منّي رميا ما بأيديهما وهرولا نحوي فاحتضنتهما

بكل بقوة وحنان.. احتضنت أملي الوحيد في الحياة.. بكيت جداً.. بكيا أيضاً كثيراً.. مسحت وجهيهما المغبرين المسودين. تلمست عظمهما الهش النحيف.. أمسكت أيديهما الصغيرة، أما هما فلم يتركاني، فحملتهما. كانت أختي خلفي تمشي ورائي. لم تنبس ببنت شفة. أو ليس لديها توضيح محدد. ومن فوري حملتهما على ظهر ناقة من نياقي التي ساقتها أختي دون إذني أو موافقتي فقد كانت تحمل وشمي بوضوح. أمسكت خطام الناقة، وقفلتُ عائداً. قالت بخجل: نم الليلة. فلم أردّ عليها. اقترب زوجها. قال: أنت متعب من الطريق والصغيران متعبان. انتظر حتى الصباح. توقفت، وعدت إليه كنت أريد أن أصرخ في وجهه. كنت أريد أن أقول له: الطفلان.. أي كذب تقوله. أي نفاق تدّعيه. الطفلان كانا كعاملين حقيرين يسهران على خدمتك أنت وزوجتك. أي نفاق تتحدث عنه، بل أية قلوب تحتويها أجسادكم. لكنني ابتسمت له – صامتاً – والدموع في عينيّ. فعلاً لا أعلم أهي دموع الفرح أن وجدت طفليّ، أم دموع الألم بسبب ما فعلته أختي! أم تراها دموع شيء آخر خفيّ لا أعلمه؟! لم يكن هناك تعب. لأول مرة أشعر براحة منذ زمن. أما الآن فإن الصغيرين بقربي وأنا مسؤول عنهما وعن مصيرهما من جديد.

الله يمنحني هدايا

كانت طريق العودة ممهدةً بالفرح، وتكسوني السعادة، إلا أن الصغيرين كانا أكثر مرحاً وعفوية وسعادة مني. في الحقيقة إن آلامهما كانت كبيرة، والواقع الذي عاشا فيه كان مؤلماً جداً. وبرغم هذا عبّرا خير تعبير عن فرحتهما بهذا التغيير. اعتلينا ظهر شاحنة باتجاه العاصمة. في ذهني هي الرحلة الأخيرة، أما في تفكير الصغيرين فلعلها الأولى. لا يتبادر إلى ذهنيهما في ذلك الحين سوى فرحة التغيير، وحلاوة البقاء بجانبي.

عندما وصلت مقر عملي، شعرت أنني كالقطة التي تحمل معها صغارها وتبحث لهم عن مكان ومأوى تضعهم فيه ليكونوا في أمان. أما صغيراي فقد أصيبا بخيبة أمل؛ لقد كانت هذه المدينة النائية عبارة عن مدينة صحراوية قليلة العمران شديدة الحرارة، وقليل فيها الاخضرار.. أعترف أن الناس في ذلك الزمن كانوا أكثر ألفة وتعاطفاً فيما بينهم. لعل السبب يعود لرغبتهم في التعاون للتغلب على أوجاعهم والانتصار على همومهم الحياتية وأوضاعهم الاقتصادية المتردية وقسوة المناخ. وجدت من يمنحني - بدون سابق معرفة - مكاناً آوي إليه أنا وولديّ. كانت عبارة عن غرفة صغيرة مع دورة مياه مستقلة. تتميّز الغرفة بقربها الشديد من موقع عملي في مخفر الشرطة. وهو ما يعني تمكني من

المرور على الصغيرين أكثر من مرة في اليوم. شاهدت في عيونهما منذ اليوم الأولى نظرات المقارنة بين ما كانا يعيشان فيه من تعب ومشقة وزرع في منحدرات الجبال وما هما عليه الآن من طيب المقام في ظلّ والدهما، برغم قسوة المناخ الذي لم يعتادا عليه سريعاً. وبرغم اختلاف لهجات وعادات الناس هنا.

منذ اليوم الأول لم يغب عن ذهني أن هذا الوضع ليس هو الوضع الاجتماعي المناسب لتنشئة طفلين في مقتبل الحياة، والمستقبل أمامهما، وبخاصة أنني أتطلع لمستقبلهما ليكون مشرقاً باهراً وجميلاً مريحاً. صحيح لم يكن هذا الجو هو الجو المناسب لتربيتهما تربية قويمة ملائمة، فأركان هذه الأسرة ناقصة وغير مكتملة. لذلك ما إن استقر بنا المقام حتى كانت تراودني فكرتان: الأولى هي البدء في البحث عن زوجة ذات مواصفات متميزة لعل أهمها النضج والأمومة. لعلها تتمكن من تعويض طفليّ بعض الحنان والشفقة التي فقداها أثناء حياتهما الماضية. والثانية هي إلحاقهم بإحدى حلقات تعليم القرآن الكريم. ليتعلما القراءة والكتابة قبل أن يبدآ مسيرتهما التعليمية النظامية في مدرسة حكومية، فيستفيدا من هذه التجربة الاحتكاك بالناس وبأقرانهما. وبهذا أكون بقربهما لأن فترة هذه الدراسة هي بعد العصر، وهو ما يعني عدم تواجدي في عملي. حيث سأتمكن من علاج أي مشكلة قد تعترضهما بخاصة في بداية حياتهما في هذا المجتمع الجديد عليهما، لأساعدهما

في الانطلاق فيما بعد وحدهما معتمدين على نفسيهما. منذ أشهر وأنا أردّد: منذ أن وصلت هنا والله يمنحني هدايا كثيرة جداً، ففضلاً عن الراحة النفسية. وجدت امرأة حنونة طيبة تقاربني في السن، وقد سبق لها الزواج، ولها طفل سلب منها بقسوة كبيرة. فهي إذن تعيش في أحزان وهمّ كبيرين.. إنها أمّ، وهذا ما أبحث عنه. لم يمضِ وقت طويل حتى تقدمت لها، وحصلت على موافقة أسرتها. وتمت مراسم زواج عادية جداً. استأجرت منزلاً أوسع تم بناؤه من الطين. يحتوي على عدد من الغرف وفيه فناء كبير زرعت فيه بعض الأشجار. ومكان ملائم للعب الولدين.

مضت سنوات قليلة وقد غدا هذا المنزل مسرحاً لعدد آخر من الأطفال كنتَ أنت واحداً منهم وشقيقك حسن ومحمد وشقيقتكم عيدة، إضافة إلى أحمد وعلي اللذين أصبحا الآن في نهاية المرحلة الابتدائية.

مجتمع متدين ولكن

لقد كانت أمك امرأة متميزة في حنانها. لقد منحت أخويك الحنان. وكنت أنا وهما في أمسّ الحاجة لدفئها وطيبتها، وحسن إدارتها لمنزلها، رغم كونها امرأة مفجوعة خرجت لتوها من تجربة زواج قاسية، أنجبت خلاله طفلاً. وبعد أن تركها زوجها السابق سرق الطفل من بين يديها وهرب به بعيداً.

كانت امرأة تنشد العدالة وبعض الإنصاف في مجتمع لا يشبه تلك الحياة التي عشناها قبل عقود، حيث الفوضى كانت سائدة وعدم النظام وغياب القانون. كنت أعتقد مجتمعنا الحديث مثالياً محملاً بالمساواة والعدالة وأنه مجتمع المؤسسات والهيئات والقوانين والعدالة. لكنه في الحقيقة كان غير مبالٍ بها كالمجتمعات البدائية التي تنتشر فيها العداوات والنعرات، كنت أعتقده مجتمعاً يتطلع لمعالجة آلام الإنسان وأوجاعه وحاجاته. لكن قوانينه كانت غير فاعلة.. هذه الأم كانت حائرة باحثة عن الوسيلة التي تمكنها من رؤية طفلها، فالشوق يقتلها، والألم غذاء روحها، والحنين لطفلها مصدر ألم دائم لها. لقد كانت كبيرة الأسى، برغم هذا عظيمة الهدوء، صامتة كحائر مستغرب يندهش، لسطو تعرض له. كانت دوماً تسأل عن طفلها. لطالما خطفها الحنين ليالٍ طويلة. بكته، لكنها لم تجد من يمدّ يد العون والمساعدة لها، بل

لم تجد من يمنحها كلمة اطمئنان تسكن بها. لقد كانت المرأة بيننا موجوعة.. حزينة، ودوماً مصابها كبير، وحزنها أليم. كانت المرأة تحترق في كل مجتمعاتنا، فلا تعرف سوى العمل المرهق، أو تتعرض للضرب الموجع والظلم والاتهام. لم أفهم هذا التضارب بين المثل الدينية التي أسمعها وبين تطبيقها. أعتقد أنه كان بينهما بون شاسع. لقد كانت حاجة الناس للإنصاف والعدالة ماثلة واضحة لكن تحقيقها – وبخاصة للمرأة – بعيد. كنا نعيش في مجتمع متدين شديد الحرص على تطبيق كلمة الرب. ولطالما سمعنا أن من يحكمنا هو الله، لكنّا في اللحظة نفسها لم نشاهد ترجمة حقيقية للعدالة والإنصاف للضعفاء والمساكين. وبخاصة للمرأة. في الحقيقة إن هذا قد سبّب لي حزناً بالغاً وكبيراً. لقد كانت صدماتي من المجتمع المدني تتوالى. وفي كل جزئية من جزئيات الحياة الحضرية أجد مَن يفسد على الآخرين ميزة حياتية وقيمة إنسانية يستحقها العابرون والضعفاء وجميع الناس في وطنهم. كنت أتصور أن حياة الفوضى ستنتهي وتتلاشى بإقامة وطن للجميع، وأمة تحتوي الشتات والفرقة، لكن هذا لم يحدث. لقد نقلنا أحقادنا وعنصرياتنا وقبليتنا المقيتة إلى أجهزة دولتنا الحديثة. كل الذي حدث تغيُّر الأسماء، أما العقليات القديمة بتفكيرها فمستمرة لم تتبدل أبداً. لذلك لم تتحقق عدالة مطلقة برغم الشعارات، ولم يتحقق صونٌ للإنسان لأنه إنسان برغم المثل

والآمال التي كانت تراود الكثيرين. وكان نصيب المرأة الكثير الكثير من الظلم والإهانة والإهمال بحجة صونها والمحافظة عليها. وبالتالي تم إحباطها والتقليل من شأنها.

ليس هذا وحسب ما أرّقني وأتعبني؛ فلقد ظهرت سلبيات كثيرة في المدينة التي نعيش فيها، فالحي الواحد يتوزع فيه عدد من المنازل التي يسكنها أناس مختلفون، من بقاع شتى وبرغم أنهم يلتقون في الحي الواحد وفي العمل وفي الطرقات بل وفي المساجد فإنهم لا يندمجون مع بعض. لا يتزاوجون من بعض بشكل عفوي، ولا يقيمون صِلاتٍ متينة قوية. كل فرد في المدينة يحرص أشدّ الحرص أن تكون علاقاته مع مَن ينتمي لجذوره والأصول التي خرج منها؛ بمعنى أن الاندماج الذي نشاهده شكلي فقط، لم يكن موجة تعصف بثوابت تلك العقول، ولم يحدث انقلاب على ترسبات المجتمعات المغلقة أو الفئوية أو العشائرية، وساهم في تقوية هذا الجانب سياسة ترسيخ هذه الانتماءات والتعصب لها؛ وكلما سار الزمن وتسارعت خطى التقدم العالمي نعود للوراء، فكأن الكون والأمم تتخلص من ثوابتها التي تعوقها وتمنع تطورها وتقدمها، ونحن بنفس الوتيرة نعود إلى الخلف ونرفض التحديث والتطوير، برغم أن تجربتنا الاجتماعية الماضية كانت مؤلمة من حيث التقاتل والحروب المستمرة أو من خلال تجربتنا الثقافية، حيث ازدهر الجهل والتخلف، ونشأت أفكار منحرفة

تفسر الأمور والدين حسبما تقتضيه مصالحها وأهواؤها الذاتية. وتبعاً لذلك انغمسنا في كل المساوئ والغباء المعرفي والسطحية في التفكير وبات ما كنا نعتقده في أوقات زمنية مضت المخلّص لنا. ظهر أنه القيد الذي أحكمنا، في لحظة حماس، ربطه حول أعناقنا بشدة وقسوة.

وتوقف الأب عن السرد

هنا صمت أبي.. لقد تذكر أوجاعاً نبشتها من وسط جدار سميك من الماضي القديم مازلت أتذكر دموع أبي.. لقد كان مغموراً في تلك اللحظات بهمّ كبير وأرق بالغ وحزن مالح. فقد شاهدت الدموع تترقرق في عينيه أكثر من مرة، فقد تذكر أوجاعاً نبشتها من وسط جدار سميك من الماضي القديم. كان الصمت حديثنا، وكنت خلاله أبحث عن مخرج، لعلي أسمح له بالانعتاق من حالة الألم التي اعترته، وتلك الكآبة التي ألمّت به، والوجوم الذي صبغ سحنته. لكنني لم أكن أقل منه حزناً، فقد جاء ذكر أمي الحنونة التي توفيت إثر مرضها، وهذا يعني أن تنسكب دموعي بلا تردد. لقد كان كلٌّ منا يعبّر عن حاله بعفوية وانسياب. عاد الصمت يسود، وكأن كلاً منا عاد في ذلك الزمن لذكرياته يتحدّث بها مع نفسه. ولعل الظلام الذي كان يغطي الأرجاء آنذاك شجعنا في الانفلات والانطلاق بأفكارنا.

السؤال الذي يتبادر إلى ذهني الآن وبإلحاح كبير: كيف لم أفكر في مثل هذه التفاصيل، وجميع هذه الأحداث والقصص التي رواها أبي منذ سنوات طويلة ماضية؟! هل كان لا بد أن أصعد مثل هذه الحافلة وأن أمضي في طريق سفرٍ لساعات طويلة حتى أتذكر وأعيد هذا الشريط؟! الحقيقة أنه سبق ومرت بي أوقات

كثيرة كنت خلالها وحيداً، بل حتى سفري وسياحتي أمضي فيها وحيداً. أتأمل الآخرين والجموع، فلماذا لم تمرّ بي قصصه وحكاياته؟! لعل الدافع لم يكن موجوداً عندها، أو أنه لم يكن هناك ما يدفعني، واليوم أجترّ قصصه لأني أتوجه إليه مسرعاً متلهفاً خوفاً عليه من وطأة المرض. لكن ضميري يؤنبني بقسوة. هل كان لابد أن يمرض والدي حتى أتذكره؟ لقد مضت سنوات طويلة جداً لم أشاهده فيها، فكيف أدّعي حبه، وتعلقي به؟ إنه خطأ ينمو ويتزايد في قلبي، لقد كنت مشغولاً جداً بمهام عملي، والارتقاء الوظيفي، وتوفير الرخاء المادي لنفسي. لقد تناسيت تماماً الحاجة لرعاية الحب والتآلف مع إنسان كان أباً مثالياً بكل ما تعني الكلمة، سنوات طويلة مضت بسرعة عجيبة. خلالها فقدت حتى معنى الأسرة، معنى العائلة.. فلم يعد أمامي – ومن ضمن أولوياتي – سوى العمل وإنجازه على أكمل وجه، وما عداها هوامش حياتية لم يكن لها أي قيمة تذكر.

سلطة شرفية وحقيقية

برغم مرور الساعات الطويلة، في هذه الحافلة، وبرغم القلق وتسارع دقات القلب خوفاً على أبي، مازال هناك متسع من الوقت الممل وساعات أخرى قبل وصولنا وجهتنا. فعلاً أمرُ وطني غريب وعجيب. هل يُعقل في وطن كبير مساحته هائلة تعادل إنجلترا وفرنسا وإيطاليا مجتمعة وثروته وفيرة، أن لا توجد فيه وسائل مواصلات كافية لتنقلنا براحة؟ بمعنى أن تكون هناك شركات طيران متعددة. أو خطوط سكك حديدية؟ عجيب فعلاً أمر وطني، إذن أين هي الوحدة الحقيقية إذا لم تتوفر لها الأسباب؟ العجيب أن هناك تمييزاً واضحاً حتى في إنشاء تلك الطرقات، فطرق تتمتع بمواصفات خرافية من التطور والاتساع، وطرق أخرى ضيقة قديمة بالية وتكثر فيها الحوادث لدرجة أنها أصبحت تسمّى طرق الموت.

في هذه الرحلة الذهنية والجسدية المضنية اقترب منّي أحد ركاب الحافلة وبادرني متسائلاً: هل يمكن أن أجلس للحديث معك لعلنا نقطع ما تبقى من هذا الطريق؟ في الحقيقة أعجبني موقفه الحضاري ووضوحه واستئذانه. آخرون يفتقدون مثل هذا الأدب الاجتماعي في اقتحام خلوة إنسان شاءت الظروف أن تجمعك به في حيّز مكاني لعدة ساعات. رحبت به وبمبادرته. عرفت فيما

بعد أن اسمه حسين، وقد سألته مستغرباً: لماذا لا نسمع موسيقى أو نشاهد فيلماً رغم أن الحافلة مجهزة بتلفزيون وفيديو؟ أجابني قائلاً: انظر إلى مقدمة الحافلة جيداً. سألته إلى ماذا يشير؟ فقال مستغربا: ألست من هذا المجتمع؟ عندها فهمت ما يرمي إليه:.. لا أحد منّا يريد صراخاً وعراكاً. فبالرغم من أن هذه الحافلة مجهزة بتلفزيون وفيديو. إلا أنهما مطفآن، ويعود ذلك لاعتقاد بعض الفئات الدينية بتحريم الموسيقى والتلفزيون! وعندما يصادف أن يكون أيّ من هذه الفئة في مكان عام يفرض آراءه ووجهات نظره! فيتم إغلاق هذه الوسائل عن الجميع بسبب شخص أو اثنين. الآخرون يصمتون لأنهم يعتقدون أن هذه الفئة تتحدث وفق توجيهات الله في القرآن الكريم أو الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، فيؤثر الجميع الصمت نتيجة لما رسخ في الأذهان من خلال مناهج دراسية طويلة ومحاضرات وندوات دينية نسمعها في كل مكان، سواء بعد أداء الصلوات أو في كل تجمع بشري. لقد رسخ في أذهان الجميع أن هؤلاء هم الصفوة، وهم الذين يسيرون على الطريق الأمثل الصحيح. وبالتالي تم منحهم سلطة شرفية وأخرى حقيقية. أما السلطة الشرفية فهي التبجيل والاحترام والإصغاء والطاعة العمياء، وكأن كلماتهم معين صافٍ من الفردوس. أما السلطة الحقيقية فهي ماثلة في تسنّمهم عدداً من المناصب القيادية في عدد من الجهات الحكومية،

وليست الدوائر أو المرجعيات الحكومية الدينية وحسب، وإنما في مواقع أخرى حياتية دنيوية. وقد ارتكبت بهذا أخطاء عديدة، مثل تعليم الفتيات والذي كان تحت إشرافهم بحجة صون المرأة وحمايتها والمحافظة عليها؛ فوضعوا منهج التدبير المنزلي الذي يهتم بتعليم الفتيات منذ نعومة أظفارهن كيفية الطبخ وإعداد الطعام للزوج وفنون الحياكة والخياطة وطرق الغسل والتنظيف، وتم تجاهل مواد دراسية هامة. كذلك تمّ حشو المناهج بأقوال وآراء تنحصر في أن المرأة خلقت لتكون زوجة وتربي الأطفال، وأن المرأة لا تخرج في حياتها إلا لثلاثة مواقع: خروجها من بطن أمها إلى بيت أبيها، ومن بيت أبيها إلى بيت زوجها، ومن بيت زوجها إلى القبر! بعد مضي خمسة عقود كان عدد الفتيات يساوي إن لم يتجاوز أعداد الفتيان، وقد تم تعليمهن جميعهنّ تعليماً متواضعاً ذا ثقافة ضحلة وسطحية، فطفت على السطح مشكلة توظيفهن حيث كنّ ينهينَ دراستهنّ في مجال تأهيل معظمهن كمعلمات فقط! وعندما تزايدت أعدادهن لم يجدن وظائف في المدن، فكان الحل تعيينهن في المدن البعيدة عن مقار سكنهن والقرى النائية بمئات الكيلومترات، ومن هنا تحديداً ظهرت الكذبة الكبرى لدعوة المحافظة على المرأة وحمايتها بمجرد الموافقة وتبرير خروج فتياتنا في منتصف الليل لمقار أعمالهن التي تبعد عن سكناهن بـ 400 أو 500 كيلومتر. فبدأت إثر هذا مشاكل عديدة، مثل

تعرض الكثيرات للموت والإصابات نتيجة للحوادث المرورية الكثيرة على الطرقات بسبب السائقين غير المؤهلين أو بسبب الإرهاق، بينما بنات وقريبات هؤلاء الربّانيين - القائمين على رعاية وحماية بناتنا - ينعمنَ بالتعيين في المدينة نفسها بل في الحي الذي يرغبنه. لم أتحدث عن مرفق أهم من هذا في الحياة الاجتماعية، وهو القضاء، حيث تنتشر كثير من المساوئ، لعل أهمها اختلاف الأحكام القضائية بين قاض وآخر. فهناك قضاة قد يحكمون عليك بشهر سجن لقضية، يأتي قاض آخر ويحكم بعشرة أيام فقط لنفس القضية في مكان آخر. وقد تحفظ بدون إصدار حكم. هذا فضلاً عن المحسوبيات والشفاعات التي تعتمد على من أنت؟ ومن أي أسرة؟ ومن أي جهة من جهات الوطن؟! مضى زمن طويل حتى أدركنا أن هؤلاء إنما هم فئة فهمت الإسلام على نحو محدد ووفق آراء محددة. وأن هناك تفسيرات عديدة في العالم للقرآن الكريم ولتوجيهات الرسول الخاتم محمد عليه الصلاة والسلام، وذلك وفق آراء أخرى ووجهات نظر مختلفة، وبالتالي لم يكن هؤلاء يملكون الحقيقة المطلقة بقدر ما كانوا يحققون مصالحهم الذاتية مثلي ومثلك كأناس عاديين لهم طموحاتهم وغاياتهم. الأخطر من كل هذا أن هذه الفئة تدافع عن مواقعها ومكتسباتها الاجتماعية والسياسية بشكل مستميت. وكل من يوجه نقداً أو يدلي بآراء تختلف عن توجهاتهم، تبدأ

على الأثر اتهامات له بالعمالة أو بالعلمنة أو بالخروج عن تعاليم الإسلام، لا لشيء أو لسبب سوى أنهم يبررون كل أخطائهم بأنها كانت قرارات صحيحة، فهم فئة لا تخطئ، وهم يختلفون عنّا فلا يحاسبون على دماء المعلمات التي أريقت على الطرقات بسبب حركة التعيينات والنقل الفاشلة الضارب في أعماقها الفساد والمحسوبيات وأمور أخرى مؤلمة! ولعل حادثة حريق وقعت في إحدى المدارس الابتدائية، وتوفي نتيجته 14 فتاة هي الصدمة التي أيقظتنا من تبعيتنا المطلقة لهم، فقد حزن المجتمع بأسره لتلك الزهرات البريئات اللاتي قتلن بكل وقاحة بعدم المبالاة والإهمال. ذلك أنه أمكن بسهولة اكتشاف أن هذه المدرسة تم التعاقد على استئجارها من مالكها لتكون مدرسة للفتيات بينما لا تستحق أن تكون مكاناً للبشر، وبينما كانت طاقتها الاستيعابية متدنية جداً بسبب ضيق مساحتها كانت مكتظّة بأكثر من 700 طالبة. علماً بأنه تم التجديد لاستئجارها لعشرة أعوام في الوقت الذي تنص فيه اللوائح النظامية على عدم التجديد لأكثر من ثلاثة أعوام؛ برغم هذه الحقائق الواضحة، يرفض هؤلاء التصديق على أنهم بشر يرتكبون أخطاء مثلنا ويتعاطون بالوساطة والمحسوبيات المؤذية التي يسهل اكتشافها عند الرغبة والتصميم على المحاسبة، وبخاصة في مسألة مثل التعيين والترقية التي لا تكلف شيئاً من العناء إلا ضغطة على قابس كمبيوتر، وبالتالي فإنهم يجب أن

يعاقبوا مثلنا، لكن ما إن تبدأ عملية محاسبة حتى تبدأ معها عجلة الاتهام بالزندقة والعلمنة ووو. وهذه تطال كل كاتب وكل مسؤول وكل إنسان يرى أن المخطئ لا بدّ أن يحاسب. يستخدمون المنابر والمساجد للترويج لآرائهم السياسية، ومنها يشككون في أي مسيرة إصلاح أو تطوير لا تتوافق مع ما يرونه أو مع وجهات نظرهم.

خلل يؤذي الناس

هزّ حسين كتفي قائلاً: يبدو أنني أزعجتك. نظرت إليه وقد صحوت من شرودي قائلاً: أنت على الرحب والسعة. ثم تساءل قائلاً: في الحقيقة إنني أجدك دائم السرحان، فما خطبك؟ ابتسمت وقلت: أبي.. يبدو أنه مريض.. وقد مضى وقت طويل لم أشاهده، ولا أخفي عليك: إنني في شوق كبير إليه، وأخشى أن يكون قد أصابه مكروه.

أجابني قائلا: إنني أعلم حجم شعورك ولا ألومك أبداً فقبل ثلاثة أعوام كنت في وضعك تماماً، فقد كنت أعمل بعيداً عن أسرتي، أو تستطيع أن تقول إنني تركت المنزل وتوجهت للعمل. وفي يوم تلقيت اتصالاً بأن والدتي مريضة، فتوجهت سريعاً نحو الديار، وعندما وصلت المنزل وجدت أمي طريحة الفراش وإخوتي وأخواتي يحيطون بها. لم يمضِ وقت طويل حتى حضرت سيارة الإسعاف وتم نقلها إلى المستشفى، وهناك قبعت لساعات في قسم الطوارئ حتى يصل دكتور مختص، في الحقيقة كان هناك الكثير من المرضى وزحام كبير، كنت كلما نظرت نحو أمي ورأيت هدوءها أحسست وكأنها راضية تماماً عما يجري حولها. كان أخي الكبير دؤوباً في حركته التي أثمرت عن وصول المدير المناوب وبرفقته طاقم من الأطباء، ومن هناك أُخذَت أمي بعيداً

عني، وما سُمح بمرافقتها إلا لأخي الكبير، حيث أدخلت قسم العناية المركزة، أما أنا فقد بقيت في قسم الطوارئ بعيداً عنها، ومن هناك فقط أمعنت النظر جيداً لجميع المرضى المتكدسين كأني أريد أن أقول لهم: لا بأس من الوساطات والمحسوبيات في بعض المواقع. كنت أريد أن أقول لهم: حتى أمي العجوز لا ترضى أن تأتي متأخرة وتدلف لترى الطبيب قبلكم، لكنني أيضاً وجدت أنه من المناسب أن أبرر أن المستشفيات لا تخضع لنظام الطابور تماماً مثلما يحدث أمام المخابز عند شراء الخبز، إنما الذي يحدث في المستشفيات تقييم للحالة ومدى خطورتها. ويبدو أنهم رأوا أن حالة أمي الصحية متدهورة، فأكملت تصالحي ورفعت معنوياتي. وتوالت المشاهدات في هذا المستشفى الحكومي، فهذه طفلة ملقاة في حضن أمها وأبوها يصرخ بموظف تبلدت أحاسيسه، وأب آخر يناشد هذا الموظف بالله أن يجد له طبيباً فصغيره ينزف منذ ساعتين إثر وقوعه، وشاب آخر يجلس على الأرض يتلوى والمارة ينظرون إليه وكأنهم يأسفون على شبابه. لم أتصور أبداً أن مثل هذه المناظر ستكون يوماً ماثلة في وطني الحبيب. خرجت لأستنشق الهواء ولأخرج من هذا الجو الكئيب، وبكيت. جلست أغطي رأسي بيدي، وفجأة شعرت بيد توضع على كتفي وتهزني وصوت يقول: اطمئن يا رجل إنها بخير، رفعت رأسي فكان أخي إبراهيم وبرفقته أخي الآخر منصور،

أخبرني إبراهيم أنه مرّ بأمي وشاهدها، وطلبني أن أرافقه إليها. كان إخوتي يظنون أنني أبكي خوفاً على سلامة أمي، وأنا لم أعلم ما الذي كنت أبكي منه تحديداً في تلك اللحظات. لم يمضِ وقت طويل حتى كان أخي الكبير، ومعه إخوتي ينهون إجراءت نقل أمي إلى مشفىً عسكريّ لتتلقى العلاج، فالمستشفيات العسكرية أكثر تطوراً من المستشفيات العامة. مضى ذلك اليوم سريعاً أيضاً وخلاله استقر المقام بأمي في المستشفى العسكري في إحدى الغرف المتطورة، في الحقيقة إنها تستحق هذه المعاملة الجديرة بالاحترام وجميع آبائنا وأمهاتنا يستحقون هذا الاحترام، وهذه المعاملة، أما إذا كنت أريد أن أكون أكثر موضوعية فإن جميع أفراد وطني الحبيب يستحقون العلاج المجاني المتطور، ويستحقون الرعاية الصحية المتميزة، بل ونستحق أن ننعم في وطننا بدون منّة أو أذى من أحد، وبدون محسوبيات ووساطات طالت حتى الجوانب الاجتماعية والمعيشية للناس. أمي *كانت محظوظة لأن لديها ابنين برتبة عسكرية عالية، لذلك وجدت العلاج المناسب والرعاية الممتازة التي تتناسب مع حالتها الصحية، لكن في جانب آخر من المستشفى قريب، كان هناك المئات من المرضى مثل أمي لا يجدون أي شفقة أو اهتمام أو حتى رعاية تتناسب مع وضعهم، إذن المسألة لا تتعلق بالنظام والاستحقاق الإنساني، ورعاية المواطن، بقدر ما تتعلق بمن أنت ومن تكون وكيف

أستفيد منك غداً إذا قدمت إليك اليوم خدماتي. هذا كل ما في الأمر وببساطة متناهية. ومادمنا أصبحنا حتى في العلاج نساوم ونكذب ونصعب إجراءاتنا من أجل استثناء من نحب ومن نستفيد منه، فهذا يعني وجود خلل كبير يؤذي الناس.. يؤذيهم جداً جداً.

طائرة الإخلاء وأمي!

مضى يومان على وجود أمي في المشفى. أنهت كافة الفحوص الطبية الدقيقة التي عملت لها، وكانت جميعها تشير إلى شيء غريب وعجيب وهو سلامة القلب، المخ، الكلى، الكبد، وكل شيء، كل شيء سليم، ولم يجد الأطباء أي مبرر طبي للإغماء الذي يصيبها معظم اليوم.

في هذا الجو، أخي الكبير لم يترك فرصة كلما جاء زائر للسلام والسؤال عن صحة الوالدة من أن يعيد سرد قصة إدخالها المشفى وأنهم ما إن عرفوا أن المريضة أمه حتى عملوا الواجب. كان أخي يتباهى بكثرة وبشكل مقيت جداً، كل هذا التباهي تلاشى عندما جاء أحد الأطباء وقال: سأكون صريحاً معكم وكان ينظر إلى أخي الكبير وهو يقول: إذا كنتم تستطيعون عمل اتصالاتكم للحصول على أمر لطائرة للإخلاء الطبي لنقل الوالدة إلى أحد المشافي الكبيرة في العاصمة بشكل سريع فإنه سيكون أفضل لها، لأننا هنا قد وقفنا عاجزين تماماً عن التعامل مع حالتها، وخبرتنا لم تسعفنا أبداً، وقال إنه يمكنه أن يساعدنا بكتابة تقرير.

نظرت إلى أخي وقلت له: ماذا تنتظر هيا أسرع بإرسال طائرة. نظر نحوي وهو غاضب جداً وقال: إن هذا الطبيب لا يفهم. قلت له: إنك مسؤول كبير، حتى وإن كان كلامه غير دقيق فلا

بدّ وأن يكون خوفك على سلامة أمك دافعاً لأن تخطو هذه الخطوة، هيا قم باتصالاتك وأحضر لنا طائرة بأسرع ما يمكن.

كان واضحاً أن أخي الكبير تقف إمكانياته ومعارفه عاجزة تقريبا عن مثل هذه الخطوة. سيحتاج إلى وقت كبير. كان يوجد عدد من الأقرباء عندما قلت له بتهور غير مبرر: لماذا لا تقول – وببساطة – إنك لا تستطيع، حتى أقوم أنا بتدبير طائرة إخلاء طبي لأمي.. ضحك وقال مستهزئاً: حسناً لا أستطيع. هيا قم باتصالاتك نحن ننتظر، ثم أخذ يضحك. أحد إخوتي قال: لم تستطع أن تأتي في طائرة إلا بعد أن انتظرت في المطار يومين، أشك في مصداقيتك. رددت بحماس: سترون. خرجت واتجهت إلى سوق مركزي خارج المشفى وجعلت أتجول فيه وكأن ما حدث في المشفى قبل قليل لا يعنيني في شيء، أو كنت أريد أن أنسى موضوع الطائرة تماماً. مضى بعض الوقت ثم عدت فوجدت حالة أمي قد ازدادت سوءاً. قلت في نفسي وأنا أسمعها تئن من الألم: لماذا لا أحاول فعلاً أن أجد طائرة إخلاء؟ لو كانت أمي في مكاني لما ترددت في طرق كل وسيلة من أجلي. توجهت إلى كابينة اتصالات هاتفية واتصلت باستعلامات الهاتف لأخذ رقم هاتف قصر أمير المنطقة. ومن هناك اتصلت وأنا متوتر وخائف، رد موظف البدالة، قلت له وأنا أصرخ: أريد الحديث مع الأمير بسرعة، ردّ عليّ وقد تلبسه الخوف: حسناً من معي؟

صرخت في وجهه: مواطن يريد الحديث مع الأمير. قال: حسناً، لحظات.. لا أعلم قد تكون هذه اللحظات ثوانٍ بسيطة أو دقائق كثيرة. الذي أنا متأكد منه أنه كان وقتاً عصيباً جداً في حياتي، حيث تملكني الخوف والاضطراب. فجأة سمعت صوت موظف البدالة يسألني: هل أنت معي على الخط؟ أجبته: نعم، فرد سريعاً قائلاً: معك الأمير، ثم حول الخط الهاتفي. سمعت عندها صوتاً هادئاً بسيطاً رخيماً يقول: أهلاً من معي؟ أجبته سريعا: أنا حسين. وأنا مواطن وأتحدث مع سموكم من أمام بوابة المستشفى العسكري حيث تقبع أمي منذ نحو ثلاثة أيام وحالتها الصحية متدهورة وهي بحاجة للنقل بطائرة الإخلاء الطبي. قاطعني قائلاً: لديهم في المستشفى آلية محددة لمثل هذه الحالات، فإذا كانت حالتها تستدعي النقل فسيتم هذا. قلت له: يا سمو الأمير إن الطبيب أخبرنا هذا اليوم أنها تحتاج النقل بأسرع ما يمكن، ولذلك اتصلت بكم. فقال: حسناً زوّد موظف البدالة بكافة المعلومات ويصير خير إن شاء الله. هكذا انتهت هذه المكالمة. في الحقيقة لم أعوّل كثيراً على مثل هذا الاتصال، فقد توقعت أن موظف البدالة نفسه سيغلق الخط في وجهي عندما أطلب الأمير. كنت أريد أن أجد لنفسي مسوغاً للعذر كوني قد حاولت أن أقدّم شيئاً لأمي، لكن إمكانياتي تقف عاجزة. لذلك لم أكن أتوقع الحديث مع الأمير فما بالك بأن يصغي جيداً لمطلبي! ولذلك

بعد حديثي معه لم يزد شيء أو ينقص. عندما عدت إلى المشفى بعد هذا الاتصال وجدت إخوتي وعدداً من الأقرباء والمعارف يحيطون أخي الكبير وهم يتبادلون الحديث فيما بينهم. لم يعيروا حضوري أي اهتمام. في الحقيقة إن عدداً من هؤلاء الأقرباء لا يعرفونني حتى، دلفت غرفة أمي فوجدتها ساخرة من كل شيء، وفي هدوئها الدائم، وصمتها المحير. جلست أمعن النظر فيها. أتمعن في تشققات وجهها. أتخيل شبابها وطفولتها. أتذكر فرحتها ونشوتها بنجاحنا، وتألمها وحزنها عند إخفاقنا. لم يقطع حبل أفكاري سوى جلبة في الخارج، وسمعت عندها من يسأل عنّي بالاسم، ثم فجأة دلف الغرفة أحد كبار المسؤولين وعرّفني بنفسه، ومن خلفه يقف آخرون. قال: إنه قد صدر أمر بنقل أمي على طائرة الإخلاء الطبي في الساعة الحادية عشرة من مساء الغد، ودعاني لمرافقته إلى غرفته للتوقيع على عدد من الأوراق. تعرّف عليه إخوتي والأقرباء ومن هناك أكملوا معه مسرحية المظاهر. هذا المسؤول يعتقد أنه يجود بهذه الطائرة على أمي وأنه هو من يقف خلفها، وأخي الكبير يريد أن يوظف هذا الحدث ليكون حديث الناس في مجتمع لم تتطور ثقافته ومفاهيمه. وفي الحقيقة يقف خلف هذه الطائرة ذلك الأمير الذي قدّر ظرفي وحزني وبادر بالاتصال بالمدير في المستشفى دون سابق معرفة بي. لكنه وجد أنه مسؤول وأنه مثل الأب للجميع ومسؤول عن

الجميع، إذاً الحقيقة أن كل ما حدث ليس من أجلي أو من أجل الآخرين بقدر ما هو من أجل أمي. توجد في وطني حثالة بشرية عجيبة انتهازية تجيّر إحسان الآخرين لتبدو منّة منهم! والمشكلة أنهم يكبرون بهذه الكذبة! الأخطر أنهم يصدقون هذه الكذبة، فكم من الأوامر الإصلاحية أو المشاريع التنموية التي تتحقق لقرية من القرى أو هجرة من الهجر تجيّر لشيخها فلان ابن فلان، ولا أحد يقول إنهم مواطنون وإن ما تقدمه الحكومة حق من حقوقهم، وليس من أجل فلان أو علان. لعله كان للقدر دور في مساعدة أمي، أو أن الله ألهمني الطريق الأمثل والصحيح. لكنني متأكد أن الأكثر بؤساً مني وفقراً، لن يقف معهم الحظ أو القدر إذا لم يكن هناك نظام يعمل به.

هل ستدخلني الجحيم؟!

هذا الموقف جعلني أحظى ببعض الاحترام أمام إخوتي والآخرين، فأصبحوا عندما أدلف مكاناً يجلسون فيه يتبسمون في وجهي ويتحدثون إليّ أو يشركوني أحاديثهم. في الحقيقة إنه شيء جميل أن تشعر أنك مهم. حتى في المشفى أصبحت أسمع كلمة يا طويل العمر، وأصبحت أرى ابتسامة الحراس ورجال الأمن بعد أن كنت لا أرى سوى تقطيب الجبين، وأصبحت أدلف بسيارتي داخل المواقف. في الحقيقة إنني كنت أقف بها خارجاً برغم هذا، لأنني أريد أن أبدو مثالياً أمام نفسي، لكن احترامهم كان يعجبني، بخاصة من المديرين المناوبين الذين يطلعون على الأمر الصادر المسجل باسمي فينتهزون فرصة مروري أثناء الدخول لمشاهدة أمي أو أثناء الخروج من عندها للسلام عليّ والسؤال عن صحتي وتطميني على سلامة أمي وأنها ستكون بخير. وكنت أمثل لهم دور الابن المكلوم حزناً على أمه والمسؤول الكبير المتماسك. في الحقيقة إن "كرت" أخي الكبير قد ضاع تماماً، بالرغم من أنه لا يفتر في الحديث عن نفسه دوماً.

أمي كان لها خطط أخرى تماماً، فما إن جاءت الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم حتى لفظت أنفاسها الأخيرة. في هذا الوقت تحديداً وصلت طائرة الإخلاء الطبي، لكن الموت كان أسرع

وأسبق. في الحقيقة أنه سواء تم نقلها أو لم يتم نقلها كانت ستموت، لأنها في الحقيقة كانت قد ماتت منذ سنوات طويلة، فنحن أبناءها وبناتها تسرّبنا من بين أيديها وتفرقنا عنها مبتعدين. لقد رحل أبي وتركها منذ زمن فبقيت وحيدة وأصبح كل ابن من أبنائها يذهب عنها حين يكبر ويتركها. أحد إخوتي حلف لأمي ذات يوم إنه إذا رزقه الله بنتاً فإنه سيسميها باسمها. مضت أشهر قليلة ورزقه الله بنتاً. لم يسمها باسم أمي، زوجته رفضت بحجة أن اسم الأم قديم! غربة أمي امتدت سنوات بدأت منذ تلك اللحظة التي قطب ابنها جبينه أمامها. منذ تلك اللحظة التي تأففت فيه زوجته منها. منذ تلك الإهانات المتوالية والتحقير المستمر لها، كانت أمي متأكدة وهي تقول إن هؤلاء ليسوا أبنائي. ليسوا مَن علمتهم وربيتهم. أمام من هم في مثل حالِ أمي طريق واحدة لا غيرها، هي الانعتاق من هذا الألم والخلاص. والرب له حكمته عندما رفع روحها إليه. في الغد سنقف جميعاً أمام جبروت وعظمة هذا الرب، ولا شك لديّ أنه سيقف بجانبها وينصفها. الذي يبكيني هو تساؤلي: هل يمكن للأم التي علمتني وربتني وبكت من أجل سلامتي وكانت تصلي الليالي الطوال من أجل نجاحي، هل يمكن لذاك الحنان أن يكون قاسياً عليّ ويتسبب في دخولي الجحيم؟! يقال إن في ذلك اليوم سيتخلى الأب عن أبنائه والأم عن أطفالها، وكل إنسان سيقول نفسي نفسي. لكني

لا أصدق أن أمي يمكن أن تراني ولا تبتسم في وجهي. أن تراني ولا تسألني: هل تناولت طعامك؟ أن تراني ولا تقول: حسين هل ترفض الزواج خوفاً من أن تجعلك زوجتك تقسو عليّ؟ يا بني تزوج وأنا راضية بما يأتي من زوجتك!! لا يمكن أن أتخيل أن أمي ستكون السبب الذي قد يقذف بي في جهنم. لا يمكن أن تفعلها أمي بي وأنا صغيرها، وأنا كل يوم أفتقدها، والحنين إلى قلبها يشدني ويجذبني.

الأبطال الصغار

كانت قصة صديقي حسين كفيلة بأن تنهي ما تبقى من الطريق، فهو قد أخذني إلى عالم آخر، وإلى أفكار أخرى، لم يقطعها إلا دخولنا صخب المدينة السياحية المشهورة بأجوائها الباردة ومرتفعاتها الشاهقة وجبالها العالية. عندما وطئت قدماي المدينة الباردة، كان هناك تحول غريب بين جو العاصمة وجو هذه المدينة السياحية الخلابة، وبرغم هذا فقد مضت سنوات طويلة، وبالتالي فقد تغيّرت المدينة وطرقها. وأصبحت لأول وهلة في حيرة إذا كنت سأعرف موقع منزل أبي أم لا! كنت في حيرة من أمري وأنا أقف في محطة الحافلات أحاول أن تقع عيني على سيارة تاكسي، لكنني لم أشاهد أي تاكسي، فقد كان الوقت ظهراً، لكنني علمت فيما بعد أنه لا توجد سيارات تاكسي خاصة أو ما يسمى: (الليموزين) وإنما هم سكان المدينة من يوصلك ويقومون بهذه المهمة، لذلك سرعان ما جاء رجل في منتصف العمر يعرض عليّ إيصالي لوجهتي، ويسألني أين أريد؟ بعد أن اتفقنا على الأجرة، صعدت سيارته، وسألته: هل هذا هو عملك؟ فقال: لا.. إنني قد خرجت من عملي منذ الثانية، والآن أترزق الله حتى المغرب ومن ثم أعود إلى المنزل.. سألته وأنا أضحك: ولماذا هذا الشقاء؟ فقال: لديّ منزل أقوم ببنائه وأحتاج

إلى المال.. ومرتبي من الوظيفة لا يكاد يسدّ الرمق ومصروف الأطفال.. طأطأت رأسي وقلت: نعم فهمت.. سألته بفضول صحفي: حسناً أين تعمل؟ قال: في مكافحة التسوّل، فضحكت وقلت: أليس المتسوّلون يسترزقون الله، وأنت تتسبب في قطع عيشهم؟ قال: لعلك تقولها مازحاً. هل أفشي سراً إذا أخبرتك أنه ومع الأسف معظم من نقبض عليهم وهم يمارسون هذه المهنة فعلاً فقراء و لم يخرجوا إلا بسبب الفاقة والحاجة. لكن في الحقيقة ليس هذا ما يعذبني، إنما العذاب الحقيقي هو عندما يقف أمامك طفل منهك تم القبض عليه وهو يجول بين السيارات لبيع مناديل بأثمان زهيدة، كيف سأتعامل مع هذا الطفل البطل؟ صرخت به قائلاً: عفواً.. بطل، أن يترك مدرسته ويتوجه لبيع المناديل التافهة، بطل أن يخرج لنا في المستقبل مجرماً؟!! نظر نحوي بذهول واستغراب وأوقف السيارة وبدأ في الصراخ في وجهي وهو يقول: يخيّل إليّ أننا نشرع في عقد محاكمة قاسية لأطفال صغار غضة أجسادهم.. بسيطة ملامحهم.. تكسو وجوههم الكآبة.. وتنتشر في عيونهم الفضيحة، فضيحة قلوبنا القاسية.. قلوبنا الجامدة. نحاكمهم لأسباب تركهم مدارسهم وهروبهم إلى الشارع حاملين مناديل زهيدة لبيعها عند الإشارات الضوئية. ولماذا أصبحوا منحرفين أو على وشك ذلك؟ إننا لا نستطيع أن نفهم لماذا الطفل الصغير يترك مدرسته ونحمّله المسؤولية؟ أو لماذا

يلجأ إلى الشارع برغم الألم الذي يواجهه ونحمّله سبب هذا؟ مَن سيقول لنا لماذا هذا الكم من الأطفال قد تركوا مدارسهم وهربوا للشوارع؟ لماذا هم منحرفون أو على وشك ذلك؟ لكن هل هي أسرة هذا الطفل؟ هل نستطيع أن نحمّلها المسؤولية بسبب فقرها وشدة عوزها؟ أم هي المدرسة التي لا تقوم برسالتها، لأن مناهجها وتعقيداتها وتجهيزاتها، لا تساعدها؟ فالمعلم ينتظر من هذا الطفل أن يأتي مستذكرا دروسه كاتباً واجباته. وإذا لم يحدث هذا فلسان المعلم سيسعفه في توبيخ الصغير أمام أقرانه. وسنحسن الظن بالمعلم على أنه حريص على مصلحة تلميذه. غير مسؤول عن مشاكل هذا الطفل، لأن ما لديه من مهام وواجبات تكفيه، وتزيد. بل كيف يدرس نفسيات خمسين تلميذاً لديه في كل فصل؟!! أو نقول إن الاهتمام بالنواحي النفسية والاجتماعية لكل أسرة لدينا مهملٌ وغائب. حتى غدا الجار لا يعرف جاره. بل الشقيق يتنكر لشقيقه.

لقد اعتقل أثناء ما سُمّي بحملة مكافحة التسول، أطفال. تم إطلاق سراحهم بعد ساعات، لأنهم - ببساطة - فقراء.. فقراء.. فقراء.. وفي اليوم التالي عادوا إلى مواقعهم ذاتها عند إشاراتهم الضوئية! ماذا حصل؟ لا أحد يعلم. إن ورقة تعهد وليّ الأمر لا تجلب تفاحاً، أو عصيراً، أو حليباً، ولا حتى بعض اللبن.

إن هؤلاء الأطفال الصغار أبطال. وبضاعتهم التعيسة عند

الإشارات الضوئية هي أوسمة بطولتهم، فمعايير البطولة هي استجابة هذا الطفل لحاجة أسرته. قام بأداء عمله على أكمل وجه، وبإخلاص منقطع النظير. وهو بطل لأنه يؤدي عمله بكل اعتزاز. وبطل لأنه لا يقف عند باب أحد المساجد يستجدي الناس والمارة. إنما بدأ بالعمل، وإن كان عمله زهيداً تافهاً. هذا الطفل بطل لأنه علم أنه ليس لدى مسؤولي وزارة الشؤون الاجتماعية سوى الكلام، وما أسهله. فلا خطط. ولا دراسات لأحوالهم الأسرية، والاقتصادية. ولا نية لدى هذه الوزارة لتقديم أي مساعدة؛ فخرج إلى الشارع ليجلب لأشقائه الأصغر منه ولأمه بعضاً من الكرامة. نعم، أبطال لكنهم مساكين.. ضعفاء.. تسعفهم الدمعة عند القسوة.. وتؤلمهم الكلمة.. وتعذبهم النظرة. أليسوا أطفالاً؟ إنهم أطهر من على الأرض. حتى غضبهم عفوي. وأساهم عفوي. وتفكيرهم عفوي، فلماذا لا ينحرفون وهم ينمون بين قسوة قلوبنا؟ لماذا لا يكرهوننا ونحن مثلهم العليا التي تعيش بأنانية ووحشية؟ ولماذا لا ينحرفون.. وغاياتنا بسيطة؟ جمع المال.. الأكل.. الضحك، والسعي هنا وهناك. ومصالحنا: اخدمني أخدمك. قتلنا الإنسان بداخلنا، ولوّثنا البياض في أعماقنا. حتى قلوبنا، قلنا إن وظيفتها فقط هي أن تبقينا على قيد الحياة! ولماذا لا ينحرف أبطالنا الصغار، ونحن الكبار منحرفون أصلاً، ومتحولون إلى كائنات مشوّهة من اللاإنساني والانعزالي،

والبعد عن أطر العيش السليم، والهمّ المتواصل لبعضنا.. يكفي هؤلاء الأطفال ألماً أننا بقسوتنا جرّدناهم من براءتهم، وسلبناهم حقوقهم.. عليهم أن ينعموا بأيام من مرح الطفولة العذب. ألا يستحقون بعد كل هذا أن يكونوا أبطالاً وهم وسط وحوش؟ وبرغم هذا مازالوا يضحكون بعفوية وببراءة. هل يستحقون أن نجرّدهم من البطولة أيضاً؟ ونعاملهم كمجرمين. نطاردهم. ونعتقلهم. لا بل ونعلنه إنجازاً لجهاز ما يسمّى بمكافحة التسوّل الذي لا يقوى إلا على هؤلاء الأطفال! أما (بارونات) التسوّل و(هواميره)، فهو أبعد ما يكون عنهم وعن القضاء عليهم. على المسؤولين أن يقوموا بمنح كل طفل يبيع ويتجوّل بين السيارات والمركبات وسامَ البطولة بدلاً من مطاردتهم واعتقالهم. انظر لحالك. أنت تتحدث بتعالٍ وتقرر لأنك - كما يبدو - ميسور الحال فلا اهتمام لديك بالآخرين. تعتقد الجميع مثلك أغنياء مترفون.

كنت ملتزماً الصمت. كل ما يجول في ذهني أن لا يطردني الآن من مركبته، فأضيع فعلاً في هذه المدينة الغريبة.. لكنه عاد وأدار محرك سيارته وانطلق بها، وبقيت محافظاً على صمتي، كيف تناقش كادحاً؟ ثم تريد أن تعلمه الطرق المثلى للتعب واكتساب لقمة العيش! ما أسهل الكلام عندما ننظّره وما أقساه عندما يقع على آذان أمثال هذا الرجل الطيب، المتحمس لقضية

الطعام والفقر. جلت بنظري نحوه، كان مازال يزمّ شفتيه مقطباً حاجبيه. تساءلت: لماذا ليس في مجلس الشورى، أو ليس وزيراً، أو مسؤولاً في شركة الطيران؟!

بائع القوارير

حدث – وللمرة الثانية – موقف عصيب معه عندما لم أعرف الطريق إلى منزل أبي وأين هو بالضبط، فقال: أيها الرجل، اسمعني جيداً لقد أضعت وقتي، هل يعقل أن لا تعرف طريقك؟! قلت له: لا بأس أيها الرجل سأزيد أجرك على ما اتفقنا عليه، لكن أرجوك لا تتخلى عني، فأنت تعرف، لا يوجد لديكم هنا (ليموزينات)، فسأظل في الشارع لساعات أخرى. عموماً ما رأيك أن تتوقف هنا وسأنزل لسؤال هؤلاء الشباب؟ أشعر أن هذا هو الحي الذي فيه منزل أبي. لكن يبدو أنه قد تغيّر فتوجد مبان جديدة وطرق معبدة بخلاف ما عهدته في هذه المدينة منذ سنوات. توقف ونزلت أسأل. ما إن عدت حتى بادرني قائلاً: إنني أعتذر لك عن خشونتي معك. إنك متعب ومرهق وقلق على أبيك، وقد قسوت عليك، فأرجو أن تسامحني. إن ما حدث لي صباح هذا اليوم يسيطر على كافة أفكاري وجوارحي. وإني شديد التأثر به. وأنت أول من صادفت. وسبحان الله لم نجد ما نتحدث فيه إلا موضوع أطفال الشوارع. فقلت له: حصل خير يا رجل. في الحقيقة إنك لم تخطئ أبداً. لكن إذا لم يكن هناك تطفل، هل يمكن لي أن أعرف ماذا حدث لك صباح هذا اليوم؟ قال: هل أنت متأكد.. تريد أن تسمع؟ أجبته: بكل

تأكيد. قال حسناً سأروي لك ما حدث: توجهت أنا وأحد الاختصاصيين الاجتماعيين إلى دار الأحداث هذا الصباح من أجل التحقيق مع طفل في الثالثة عشرة من عمره تقريباً قبض عليه يبيع القوارير الفارغة. سأحاول أن أصوّر لك المشهد والحوار لأنه مازال حديثاً يتراقص أمامي وكأنه حدث قبل دقيقة واحدة فقط. قلت: حسناً.

وصلنا إلى دار الأحداث، فكان الاختصاصيّ الاجتماعي يجلس وأمامه هذا الطفل يسأله بصوت غاضب مرتفع: منذ متى وأنت تمتهن هذا العمل الوضيع؟

الطفل: منذ أربعة أعوام.

الاختصاصي الاجتماعي: ما الذي دفعك وأجبرك على القيام بهذا العمل؟ هل أبوك أو أمك يشجعانك، أم أن هناك أحد أقاربك أو أصدقائك يجبرك لتقوم بهذا العمل الحقير؟

الطفل وهو يمسح وجهه: كلا يا سيدي لا أحد يجبرني على هذا العمل سوى الجوع يا سيدي!

الاختصاصي الاجتماعي- ولم يرفع رأسه من بين الأوراق – يردّ بحدة: الجوع أم جشع أهلك؟! الطفل لا يرد ويلتزم الهدوء.

الاختصاصيي الاجتماعي يرفع رأسه ويقول: لقد مضى على امتهانك هذا العمل أربعة أعوام. ما شاء الله ملفك هنا حافل، ألقي عليك القبض من قبلُ مرتين وهذه الثالثة. وطبعا تركت

مقاعد الدراسة. هل تعتقد أن وطنك ومجتمعك بحاجة إلى زبّال وجامع نفايات؟

الطفل: يجهش بالبكاء.

يصرخ الاختصاصي الاجتماعي بحدة: إن وقتي ضيّق. هيا أخبرني، ما الذي يدفعك ويشجعك على امتهان هذا العمل ويجعلك مصرّاً على مواصلته رغم التحذيرات السابقة والتعهدات المتكررة؟

الطفل.. وقد مسح دموعه يرد بصوت مرتفع: منذ أن فتحت عيني وعرفت هذه الحياة ونحن نعيش في شقاء وألم وفقر. لم يشعر بنا أحد أو يتعاطف معنا أحد. كنت في الثامنة من عمري عندما بدأت أشعر بحجم التعب والإرهاق الذي يعاني منه أبي وأمي. لقد كانا يتعبان في العمل من أجلنا. وكانت مصروفاتنا على قدر ما يكسبانه. أمي كانت عاملة منزلية في أكثر من بيت. أحد المنازل تعمل على تنظيفه وكنسه، ومنزل آخر تعمل فيه طباخة لطعام الغداء، ومنزل ثالث تغسل فيه الملابس. وكانت تجمع من هذا العمل القليل من النقود. أبي كان يشقى هو أيضاً كعامل مع أحد مقاولي البناء. وكانت أمورنا تسير بملوحة ورتابة مملة. كانت شقيقتي ريم - وهي أكبر مني - تجلس معنا بعد عودتنا من المدرسة أثناء غياب أمي وأبي عن المنزل. كنت في كل ليلة أستمع لأبي وأمي وهما يتبادلان أطراف الحديث عن يومهما وعن

أمورهما وأخبارهما. مرة كان أبي متأثراً جداً لأن أمي كانت تسعل بقوة وتعاني من نزلة برد، فقال لها: أم خالد والله إنني خجلان منك كثيراً. فأنت تتعبين معي ومع الأطفال. ولا أعلم متى أتمكن من إراحتك. ردت أمي عليه قائلة: الله يسامحك يا أبا خالد.. كيف تقول هذا الكلام؟ إن الحياة تتطلب منا جميعا أن نتعب ونشقى. ثم لا فرق بيني وبينك. اطمئن ولا تخف عليّ فأنا أقوى مما يبدو لك. كنت ألتحف في الفراش وأبكي بحرقة على أبي وأمي اللذين حرصا على ألاّ نحتاج لأي شيء. كل هذا تغيّر، وتبدّلت الأمور منذ أن قدر الله على أبي وسقط من أعلى أحد المباني التي يعمل في بنائها، فأصبح مقعداً. كان أبي يفضل الموت على أن لا يأتي مثل هذا اليوم. منذ أن أصبح أسير الكرسي المتحرك زادت المصاريف ومتطلبات الأدوية في علاجه. فأصبحت شقيقتي ريم - أيضاً - تعمل مع أمي. وكنت أرى كل هذا. عندها أصبح لزاماً عليّ أن أمد يد المساعدة لأسرتي وأهلي، لذلك توجهت للعمل. كان صديقي مبارك في المدرسة يعلم بظروفي - وما أكثر ما شاركته طعامه الذي تعده أمه له - فأخبرني بهذا العمل. ومنذ ذلك الحين وأنا أمارسه حيث أجمع الزجاجات الفارغة وعلب المرطبات وأقوم ببيعها لمصنع الزجاج ومصنع المعلبات، فأقبض بعض المال، وبشكل يومي، بل إن مدير المشتريات في هذا المصنع كان يمنحني دوما علاوة وزيادة.

يواصل الطفل الصغير تذكره وسرده قائلاً: في إحدى المرات سألني أبي: كيف تسير أمور الدراسة يا خالد؟ أجبته قائلاً: كما تحب يا أبي. كانت لحظات بسيطة عندما شاهدت الدموع في عيني أبي. هل تعرف معنى أن يبكي أب أمام طفله؟ إنها يا سيدي دموع العجز. إن أبي يعلم أنني لم أعد تلميذاً في المدرسة كما كنت في الصفوف الأول والثاني والثالث والرابع الابتدائي. لقد تغيّر كل شيء في حياتنا. أصبحنا أكثر فقراً. لكن الشيء الوحيد الذي لم يتغيّر هو حبنا لبعض كأسرة متماسكة لها كرامتها وأنفتها وعزتها وكبرياؤها. يستطيع الفقر أن يفعل بنا أموراً كثيرة لكنه لا يستطيع أن يصادر قلوبنا أو أن يبدّل مشاعرنا أو أن يلغي حبنا. في إحدى الأمسيات عدت إلى المنزل متأخراً وكانت أمي تنتظرني بلهفة وخوف قالت لي: خالد، هل تعلم أن شقيقتك ريم نجحت بتقدير ممتاز إلى الصف الأول الثانوي؟ وأن شقيقك إبراهيم نجح هو أيضاً بتقدير جيد جداً وانتقل إلى الصف الثالث الابتدائي؟ لقد فرحت بل كدت أطير من الفرحة. سألتها: هل أبي على علم بهذا؟ هزت رأسها مجيبة بنعم، وقالت: إنه يوم سعيد جداً. إن ريم متفوقة وتريد أن تصبح طبيبة. ذهبت أمي لتحضر لي طعام العشاء، وجلست أبكي. هل تعتقد أنني لا أريد أن أواصل تعليمي ودراستي مثل أقراني؟ إنني على الأقل أفعل شيئاً صحيحاً من أجل أمي وأبي وإخوتي. إن جمع الزجاجات الفارغة

والعلب الفارغة ليس بالعمل العظيم، بل إنه عمل مهين جداً. لكنني يومياً أعود لمنزلنا بنقود تكفي جميع أفراد أسرتي. وهذا هو المهم لديّ. أنا لست مجرماً، أو أتعاطى المخدرات، أو منحرفاً، أو أؤذي مجتمعي. أنا – فقط – أعمل على إيجاد حلول لمشكلتي ومشكلة أسرتي من شح الطعام والفقر. قد لا تكون حلولي مثالية لوطني وأمتي. لكنها بالنسبة لي حلول عملية تساعدني على الحياة يوماً آخراً. أنا لم أحاسب مجتمعي على إهماله لي ولإخوتي. ولم أطالبه برعاية طبية واجتماعية وتعليمية ممتازة، لأنني لا أملك الوقت لمثل هذه المطالب. لذلك أرجوك أطلق سراحي، وأعد نقودي إليّ. أريد أن أقوم بشراء دواء يستخدمه والدي لتخفيف آلام ظهره.

نهض الاختصاصي الاجتماعي ببطء، وبتثاقل، وأمسك بالملف الملقى أمامه على المكتب فمزّقه، وقام برميه في سلة المهملات! ثم قام بجمع النقود المبعثرة على مكتبه وهي حصيلة عمل ذلك الطفل، وسلمها إليه. ثم وضع يده في جيبه وأخرج المزيد من النقود ودفع بها إلى الطفل خالد الذي تناول نقوده وهو يمسح وجهه، تاركا نقود الاختصاصي الاجتماعي على المكتب، وحمل نفسه ناهضاً من على الكرسي.

كان الاختصاصي الاجتماعي متأثراً جداً عندما قال: يا بائع القوارير لو كنت ابناً لي، لكنت فخوراً بك.

توقف خالد عند الباب لحظات، ثم انصرف خارجاً.

كنت أتخيل موقع جمع النفايات، ويتواجد فيه عدد من الأطفال حيث يجمعون القوارير والعلب الفارغة. وكنت أرى الطفل خالد بين هؤلاء الأطفال. خالد الذي قال لنا بلغة الأبطال وكلماتهم التاريخية: أنا لست مجرماً، أو أتعاطى المخدرات، أو منحرفاً، أو أؤذي مجتمعي. أنا فقط أعمل على إيجاد حلول لمشكلتي ومشكلة أسرتي من شحّ الطعام والفقر. قد لا تكون حلولي مثالية لوطني وأمتي.. لكنها بالنسبة لي حلول عملية تساعدني على الحياة يوماً آخراً. أنا لم أحاسب مجتمعي على إهماله لي ولإخوتي. ولم أطالبه برعاية طبية واجتماعية وتعليمية ممتازة، لأنني لا أملك الوقت لمثل هذه المطالب. لذلك أرجوك أطلق سراحي، وأعد نقودي إلي. أريد أن أقوم بشراء دواء يستخدمه والدي لتخفيف آلام ظهره.

الإرهابيون أبناؤنا!

بعد أن صمت، أو بعد أن انتهت قصته كنت أقول في نفسي: إنه من المناسب أن أدّعي وصولي وجهتي حتى أترك هذا الرجل الكادح لهمومه، وأنصرف عنه، لكن بعد بعض الانعطافات الخاطئة وجدت منزل أبي. نعم إنه المنزل الذي قضيت فيه كثيراً من أيام حياتي. ترجلت من السيارة. طرقت الباب ومن خلفه سمعت صوت العاملة المنزلية، وهي تسألني: من؟ تلعثمت هل أحد منكم يطرق باب منزل أبيه ويجد من يسأله عن هويته. ذلك أنني بعد أن عرّفت بنفسي لم تعرفني هذه العاملة، ثم إنني طلبتها أن تفتح الباب فرفضت، فسألتها عن أبي. فقالت: بابا كبير في المستشفى. لم تكن تتقن العربية بطبيعة الحال، ولكن: ألا يوجد أحد في المنزل في تلك اللحظة؟ تركت المنزل وأنا عازم على التوجه نحو المشفى. خرجت إلى الشارع الرئيسي، فوجدت الرجل الكادح ينتظرني وهو يبتسم ويقول: لا أعلم لماذا شعرت أنك ستعود؟ أجبته: إنهم يقولون إن أبي تم نقله إلى المشفى. أنزل نظره نحو الحقيبة التي أحملها، فقلت له: إنهم لم يعرفوني ولذلك لم يفتحوا الباب لي. أنت تعرف النساء. قال: حسناً سأوصلك، فقلت له: لكنني لا أعرف أي مشفى قصدوا؟ ضحك وقال: وكم مشفى تعتقد لدينا؟!! هو مشفىً واحد ومن الجميل أنه موجود.

أوصلني الرجل إلى قسم الطوارئ ومن هناك تركته ودلفت سائلاً موظفة الاستقبال. فعلمت منها أن أبي قد أدخل المشفى منذ الصباح. حاولت الدخول لزيارته والاطمئنان عليه، فتم منعي لأن مواعيد زيارة المرضى تحين بعد نحو الثلاث ساعات من الآن. حاولت أن أفهمهم أنني ابنه ولتوي قدمت من السفر وهذه الحقيبة الكبيرة التي في يدي خير دليل وكل ما أطلبه الاطمئنان على أبي فقط. كانت كل محاولاتي تبوء بالفشل. حضر المدير المناوب على نبرات صوتي المرتفعة وأخبرته بدوره وبكل وضوح أنه أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن يتركني أن أرى أبي، وإما أن يستدعي رجال الأمن لاعتقالي لأنني سأبدأ بالتسبب بفوضى لا تحمد عقابها. كحل لهذه المشكلة قرر هو شخصيا وبرفقة أحد حراس الأمن في المشفى مرافقتي، ولكنه طلب أن أذهب أولا إلى غرفة الاستراحة والانتظار فيها لنحو عشرين دقيقة فترة غداء المرضى. عندما وصلت هذه الغرفة ارتميت على أحد المقاعد القصية، وقد أخذ مني التعب كل مأخذ وشعور الإرهاق يغطي كافة أرجاء جسدي. كنت أعاني رغبة ملحة وجارفة في النوم، وجفوني تحاصرني وباتت تطبق دون إرادتي. ودخلت في صراع غير متكافئ مع رغبات كياني بأسرة للنوم والاسترخاء، وبين صمودي ومقاومتي حتى ألقي نظرة الاطمئنان على أبي أولاً، ومن بعد تلك النظرة يمكن أن أجد ملاذاً للنوم ليوم كامل. ما

الإرهابيون أبناؤنا!

بعد أن صمت، أو بعد أن انتهت قصته كنت أقول في نفسي: إنه من المناسب أن أدّعي وصولي وجهتي حتى أترك هذا الرجل الكادح لهمومه، وأنصرف عنه، لكن بعد بعض الانعطافات الخاطئة وجدت منزل أبي. نعم إنه المنزل الذي قضيت فيه كثيراً من أيام حياتي. ترجلت من السيارة. طرقت الباب ومن خلفه سمعت صوت العاملة المنزلية، وهي تسألني: من؟ تلعثمت هل أحد منكم يطرق باب منزل أبيه ويجد من يسأله عن هويته. ذلك أنني بعد أن عرّفت بنفسي لم تعرفني هذه العاملة، ثم إنني طلبتها أن تفتح الباب فرفضت، فسألتها عن أبي. فقالت: بابا كبير في المستشفى. لم تكن تتقن العربية بطبيعة الحال، ولكن: ألا يوجد أحد في المنزل في تلك اللحظة؟ تركت المنزل وأنا عازم على التوجه نحو المشفى. خرجت إلى الشارع الرئيسي، فوجدت الرجل الكادح ينتظرني وهو يبتسم ويقول: لا أعلم لماذا شعرت أنك ستعود؟ أجبته: إنهم يقولون إن أبي تم نقله إلى المشفى. أنزل نظره نحو الحقيبة التي أحملها، فقلت له: إنهم لم يعرفوني ولذلك لم يفتحوا الباب لي. أنت تعرف النساء. قال: حسناً سأوصلك، فقلت له: لكنني لا أعرف أي مشفى قصدوا؟ ضحك وقال: وكم مشفى تعتقد لدينا؟!! هو مشفىً واحد ومن الجميل أنه موجود.

أوصلني الرجل إلى قسم الطوارئ ومن هناك تركته ودلفت سائلاً موظفة الاستقبال. فعلمت منها أن أبي قد أدخل المشفى منذ الصباح. حاولت الدخول لزيارته والاطمئنان عليه، فتم منعي لأن مواعيد زيارة المرضى تحين بعد نحو الثلاث ساعات من الآن. حاولت أن أفهمهم أنني ابنه ولتوي قدمت من السفر وهذه الحقيبة الكبيرة التي في يدي خير دليل وكل ما أطلبه الاطمئنان على أبي فقط. كانت كل محاولاتي تبوء بالفشل. حضر المدير المناوب على نبرات صوتي المرتفعة وأخبرته بدوره وبكل وضوح أنه أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن يتركني أن أرى أبي، وإما أن يستدعي رجال الأمن لاعتقالي لأنني سأبدأ بالتسبب بفوضى لا تحمد عقباها. كحل لهذه المشكلة قرر هو شخصيا وبرفقة أحد حراس الأمن في المشفى مرافقتي، ولكنه طلب أن أذهب أولا إلى غرفة الاستراحة والانتظار فيها لنحو عشرين دقيقة فترة غداء المرضى. عندما وصلت هذه الغرفة ارتميت على أحد المقاعد القصية، وقد أخذ مني التعب كل مأخذ وشعور الإرهاق يغطي كافة أرجاء جسدي. كنت أعاني رغبة ملحة وجارفة في النوم، وجفوني تحاصرني وباتت تطبق دون إرادتي. ودخلت في صراع غير متكافئ مع رغبات كياني بأسرة للنوم والاسترخاء، وبين صمودي ومقاومتي حتى ألقي نظرة الاطمئنان على أبي أولاً، ومن بعد تلك النظرة يمكن أن أجد ملاذاً للنوم ليوم كامل. ما

إن بدأت أمعن النظر في الموجودين في تلك الغرفة، حتى شاهدت ثلاثة أشخاص، مشدوهين بالتلفاز المعلق بالجدار، أرخيت سمعي وكان هناك بيان آخر يتلى من الجهات الأمنية حول اعتداء آخر تعرضت له العاصمة اعتداء من فئة إرهابية تدّعي أنها تجاهد في سبيل الله. بالأمس تعرضت عاصمتنا لاعتداءات ذهب ضحيتها الأبرياء من الأطفال والنساء والرجال المسالمين. أحد الرجال المتسمرين أمام التلفاز كان يفرك يديه ببعضهما، ويلعن أمريكا ويلقي باللائمة عليها، كنت أحاول النهوض والاقتراب منه لأفهم سر اكتشافه ودليله ووجهة نظره في هذا الاتهام، لكنني تراجعت عندما سمعت أحدهم يتمم كلامه بأنها حملة شعواء من أعداء الإسلام، وبدأ حديثهما يتصاعد وكأنهما يجدان بعض العزاء والسلوى وهما يتفقان أن هؤلاء الإرهابيين ينفذون مخططات لأعداء الإسلام فقط، ويؤكدون أنها حرب شعواء ضد الإسلام والمسلمين. كنت أريد أن أقترب منهما والتوضيح لهما أن هؤلاء الإرهابيين من أبنائنا، وهم من إفرازات ثقافة الرأي الواحد. ثقافة إلغاء الآخر. ثقافة القسوة في النصح والتعامل. كنت أريد أن أقول إن هؤلاء ليسوا من أولئك الذين ذهبوا إلى الغرب لدراسة العلوم الإنسانية المختلفة، بل هم من الدارسين في مدارسنا الابتدائية التي علمتهم تضييق الطريق على غير المسلم. إنهم من خريجي جامعاتنا التي علمتهم عقيدة الولاء والبراء وفق

نظرة واحدة وقول واحد. لكني كنت متعباً ومرهقاً ووجدت أن جسدي بأسره في حالة ركود وخمود، والنعاس يحاصرني لذلك لم أتحمس لمناقشتهما أو على الأقل لطرح وجهة نظري بين أيديهما. مضى بعض الوقت دون أن يأتي المدير المناوب كما وعدني، لذلك توجهت إليه لأنني لو بقيت أنتظره في غرفة الاستراحة لغلبني النعاس، وقد أنام، وعندما شاهدني قطب جبينه وبادرني قائلاً: لو سمحت انتظر هناك حتى أطلب حضورك. ضحكت وجلست في مكتبه، ونظرت إلى ساعتي وقلت له: اسمعني جيداً، وحاول أن تفهم كلماتي التالية: أمامك إنسان محطم يشعر بالمرض يداهمه والإرهاق يحاصره والنوم أو الموت ينتظره، ليس لديّ متسع من الوقت، كل الذي أريده مشاهدة أبي والانصراف لقدري. هل كلامي واضح؟، إنني لا أجلس على رأسك أو في منزلك حتى تصرفني متى ما أردت وإلى المكان الذي ترغب. مضى بعض الوقت في صمت، ثم قطعه قائلاً: نحن نمرّ بظروف لا يقدرها أمثالك، ولكن تلافياً لأي مشاكل وتقديراً لحالتك، سأوصلك لرؤية أبيك لخمس دقائق فقط. ابتسمت ابتسامة الشاكر له ولمبادرته، لكنني شعرت بتأنيب الضمير أثناء سيرنا إلى الغرفة التي يرقد فيها أبي لذلك سرعان ما بادرته قائلاً: إن النظام أمر رائع، وهو يعجبني أن لا يكون هناك استثناءات. ولكن يجب أن تراعي جوانب إنسانية. إلا أنه ومع الأسف –

ويا لدهشتي – عندما وجدت أن كل الغرف لا تخلو من بعض الزائرين من ذوي الوساطات الذين سمح لهم بزيارة ذويهم من المرضى في غير وقت الزيارة الرسمية المحددة، وكنت أشاهدهم يبتسمون له ويحيّونه ويحيّيهم. عندما وصلت إلى الغرفة التي فيها أبي، قلت له: تستطيع أن تغادر أنت وحارس الأمن لأن لديكما مهامّ أخرى كما أعتقد. قلتها والغضب يتملكني تماماً، ولأنه لم يكن رجل نظام، ولأنه يعلم بنفسه مقدار الفوضى لأنه لم يطبق هذا النظام، انسحب بكل هدوء.

إخـوتي والرأي!

عندما دلفت الغرفة كان جميع إخوتي وأخواتي موجودين. كانوا ينظرون نحوي مشدوهين فهم منذ سنوات طويلة لم يروني. لعلهم كانوا يعتقدون أن آخر شخص قد يأتي هو أنا. كنت أتوقع أن أشاهد أبي وأن يسعد برؤيتي ووجودي بل إنه سينهض ويقبلني كما كان يفعل دوماً، لكنني شاهدت السرير خالياً وأبي غير موجود، سألتهم: أين أبي؟ أجابني أحد إخوتي: لقد أخذه الأطباء إلى غرفة أخرى أكثر عناية، إنه في إغماءة متواصلة، ثم أضاف: لكنه استيقظ من غيبوبته مرتين في الأولى تحدثنا معه وكان يبتسم، وفي المساء استيقظ وفتح عينيه وألقى نظرة طويلة علينا، وابتسم لرؤيته إيانا أمامه مرة أخرى، ومن وقتها أغمض عينيه! ثم إنه جاء عدد من الأطباء ونقلوه إلى غرفة العناية المركزة وهو مازال تحت الملاحظة من حينها وحتى الآن، بل ويمنعوننا من رؤيته، ثم صمت. جلت بنظري نحو إخوتي وأخواتي وأنا أبتسم، فكانوا باردين تماماً فقلت لهم: حسناً أنا لم أؤذ أحداً منكم كل ما في الأمر مجرد أفكار ووجهات نظر أصرّح بها وأكتبها، فما الضرر أو الأذى الذي يجعلكم كارهين لي لهذه الدرجة؟ ردّ أحدهم قائلاً: اطمئن على صحة أبيك أولاً، ثم فكر لماذا الجميع غاضب وكاره لك، ولسنا وحدنا، فنحن نبغض في

لله ونحب في لله، ونشهد الله أننا كارهون لك ولما تكتبه وما تقوله من آراء لا ترضي أحداً، انظر جيداً في عمرك وسنواتك إنك على مشارف الأربعين من عمرك، وقد سخرتها لمحاربة ثوابت مجتمعك والحط من قيمنا وعاداتنا وتقاليدنا، جميع من نعرف لا يذكرونك بخير. إنك إنسان فاسد في المجتمع، ولو كان الأمر لنا لتبرأ حتى أبونا منك، لكنه ومع الأسف لم يفعلها، أما نحن فبراء منك ومن أخوّتك ونعدك ميتاً. نظرت نحو أخي وأنا أسعل بشدة والعرق يتصبب من جبيني، وقلت له: كل الذي ذكرته لا يسمح لك أن تعاديني أو أن تكرهني. قلتها بيأس وألم واستسلام. قام على رأسي أحدهم وقال: ألست الذي كتب مقالاً طويلاً عريضاً تطالب بمساواة المومسات بالرجال، وتقول إن المرأة التي ترتكب الزنا وتمتهنه وظيفة تم تصنيفها في المجتمعات بتسميات معروفة، بينما الرجال الذين يرتكبون هذا المحظور لا توجد لهم مثل هذه التسميات؟! رفعت رأسي بتثاقل وقلت له: يا أخي مقال فيه نحو ألفي كلمة؛ لم تخرج منه إلا بفكرة قلتها في سطرين فقط، وأنت هنا شوهتها تماما. ما ذكرته يا عزيزي ببساطة في ذلك المقال هو أن المرأة تعاني في فضيلتها وخطيئتها، فلا مساواة ولا عدالة، سواء أكانت محسنة أو مذنبة، وضربت مثالاً برجالنا البواسل من الشباب وغيرهم الذين يجوبون الشرق والغرب بحثاً عن اللذة والمتعة، ويعودون مظفرين محل إشادتنا

واعتزازنا، بينما تنتهي حياة فتاة لدينا بمجرد خروجها مع شاب غرر بها. سمعت أحدهم من بعيد يقول: قبحك الله! أمسكت بيد أخي الذي بجانبي فدفعني وأنا أقول له: شقيقي الحبيب إنني متعب جداً وأعتقد أنني مريض جداً. لم أنم منذ أكثر من ثنتين وسبعين ساعة وكنت في الطريق البري لأكثر من عشر ساعات متواصلة، وقبلها كنت في عمل متواصل في مكتبي، فارحموني. اقترب مني أحد إخوتي وقال: إن حالة الوالد غير مطمئنة حسب قول الأطباء، فلا تأمل في الكثير.

الأحلام وأوجاع الذكريات

إغماءة محملة بذكريات مرهقة. كأنه شريط من الأوجاع الماضية يسير أمامي بإعادة ممزوجة مؤلمة.

ذاكرتي تجترّ القصص القديمة النائمة في عقلي وتصعد بها إلى وجودي وتتلبّس كياني.

يا للهول! إن هذا المساء هو مساء الجمعة. طالما سمعت أبي يدعو الله أن يقبض روحه في يوم الجمعة، يريد أن تصعد روحه إلى السماء في يوم الجمعة. لا أعلم لماذا بالذات يوم الجمعة، لكنني أمسك رأسي، وأقول: لا، لا يا الله.. ليس الآن.. ليس الآن.. ظللت أبكي وأبكي وأنتحب حتى تعالى صوتي. بادرني أخي الكبير قائلا: لو فيك خير، وتحب أباك كل هذا الحب، ما تركته كل هذه السنوات الطويلة، لكنك هجرته لأنك لا تقيم وزناً لصلة الرحم ولا تعرف الواجبات الاجتماعية. استمريت بالبكاء، فاقترب أحد الأطباء نحوي وقال: هل أنت رجل؟ ألا تؤمن بقضاء الله وقدره؟ قلت له: تبّاً لك. لا أؤمن لا لا لا. تقدم نحوي عدد من الممرضين وإخوتي يقتربون مني. هي سنوات طويلة مضت لم تتلامس فيها أيدينا، والآن يحاولون أن يخففوا عنّي مصابي ويربتون على كتفي، أو هكذا شعرت! أو هذا الذي كنت أظنه. ثم إن إحدى الممرضات قدمت لي كوب ماء شربته

بنهم وبرغبة لأرطّب حلقي الذي جف تماماً من الصراخ. ومن ثمّ شعرت بتراخي عضلات جسمي ثم وقوعي على الأرض غير قادر على الحركة. كنت أهذي وأقول: فقط أرجوكم، أريد أن أقول لأبي كلمة واحدة.. أرجوكم كلمة واحدة.. تبّاً لكم جميعا كلمة واحدة.. أنا متعب.. أنا مسكين.. أنا حزين.. أنا أريد أن أموت. ثم دخلت في إغماءة محملة بالكوابيس المؤلمة والأحلام المليئة بأحداث مرهقة. كأنه شريط من الأوجاع الماضية يسير أمامي بإعادة ممزوجة مؤلمة، هذه هي ذاكرتي تجترّ الأحداث القديمة النائمة في عقلي اجترارا وتصعد بها إلى وجودي وتتلبّس كياني. صور من سنوات غابرة كانت منسية وسط الكمّ الهائل من الذكريات والأحداث اليومية. هي الآن تتراقص أمامي تحكي وتقصّ عن ذاك الشتاءِ الصحراوي الجاف والذي كان مختلفاً، حيث لم أجد فيه أمي كما تعودتها في غرفتها تقوم بالإرشاد والإدلاء بالنصائح والتعليمات.

الصباح القارص

لقد كانت طريحة الفراش، تعاني المرض. وبرغم ذلك ممسكة بزمام الأمور. تتشبث بأطفالها وعائلتها لآخر لحظة. في كل صباح كانت توجهني أن ألبس هذا، وأن لا أرتدي هذا. تقول: اتركه. سأغسله بعد ظهر اليوم. لكنها لا تفعل، وتشعر كأني أحاسبها. تقول وهي تمسد بيدها الواهنة المرتجفة شعر رأسي: صغيري هل مللت الإفطار من (الكيك) من متجر والدك. تشعر بأنني أحاسبها، وأنا أتمنى لها السلامة. في ذلك الصباح الحزين لم أجدها كما اعتدتها. لقد افتقدتها. جعلت أفكر: لماذا كانت في المساء تبتسم وتنظر إلينا وتقول: تعبتم، غداً سوف ترتاحون؟ نحن لم نرد إلا أنفاسك، إلا وجودك معنا، أنت من أتعبك المرض، وأضعف كيانك، وأنهك قواك. كيف نساعدك؟! في ذلك الصباح الحزين، كان والدي يبكي عند زاوية قصيّة في بيتنا الطيني. كانت الدموع تنهمر من عينيه وهو ممسك بعضده الأيمن، كأنه فقده أو يتحسسه لعله لم يعد في مكانه. كانت أمي طريحة الفراش منذ أشهر طويلة. كان أبي يقوم بأعمال التنظيف والكنس والرعاية والطبخ. ويقابلها بابتسامة كبيرة. منذ اليوم الأول أفتقدها. لم تكن تريد أمي الحياة إلا من أجل صغارها. كنت أشاهد في عينيها مساءً نظرات الألم والوداع. صغيري لقد

كان الموت ماثلاً أمامي لذا أنا لا أخافه، إنما أخاف عليكم. الآن أتعجب كيف أصيبت حياتنا بالهرم والذبول بعد وفاتها برغم أنها كانت بعيدة عن كل مشقات هذه الحياة. بعيدة عن صخبنا وشجارنا وضجيجنا. إذن كل الذي حدث أن أمي قررت الاسترخاء في مكان آخر غير بيتنا الطيني! وبرغم هذا تعرض أبي لانهيار وحزن عميقين. لعلها غادرته وهو لم يرتوِ من حبها رغم وجود صغاره الأربعة. كان كل شيء يوحي بأن العواصف قد بدأت لتوها بالهبوب بسمومها القاسية المؤذية.

في ذلك الصباح القارص البرودة سألت عن أمي برغم أنني لم أكن أسأل عنها. لم أتلقَ جواباً. أقول لعلها نقلت إلى المشفى. نعم سيعودون، وسأستمع منها ما تردده منذ أن أصابها المرض. الطبيب يقول: غدًا سأتحسن، غداً ستعود لي صحتي. عندما انتهى اليوم الأول وبدأ الناس بالتوافد لتقديم العزاء والمواساة كنت ضائعاً تماماً بين جموع الناس. مضى يوم.. يومان.. ثلاثة، لم تظهر أمي.. لم تعد.. بل إنها لن تعود، لذا رحمتها. أشعر أنها ذهبت وهي تفكر في صغارها. منذ ذلك اليوم وأنا أشعر بالبرد القارص يسحق أوصالي. إذاً ما الذي تغيّر؟ حتى آخر لحظات بقائها ووصاياها ماثلة. لم يبقَ منها سوى الذكرى والحنين القاتل. أمي، لا أعلم لماذا بعدك شعرنا أننا لا شيء.

عيدة.. وداعاً

لم يخبرني أحد أنها ماتت. كان لا بدّ أن أستنتج ذلك وأعرفه، لأن كل علامات الفقد والحنين قد ترسبت في قلبي. كان أبي بحاجة لمن يواسيه ويأخذ بيده. الجميع كان يعتبر أن أمي لم تمت إلا بعد أن تركت فراغاً هائلاً في حياتنا، لذلك فمصاب فقدها خفيف ولا يذكر. لكن وقائع الحقيقة كانت غير ذلك. وكانت طقوسها مؤلمة.

كنا في بيتنا الطيني نجلس بين يدي أبينا وهو كظيم مهموم حزين. الشقيقة الصغرى عيدة كانت هي أكثرنا فقداً لأمنا لأنها كانت الوحيدة بيننا، كانت تنام برفقتها وفي أحضانها. لقد تعب أبي كثيراً معنا جميعاً. لكن عيدة كان تعبها مختلفاً، فقد كانت حملاً عظيماً. كانت أصغرنا سناً، وتحتاج عناية متواصلة وحناناً ومتابعة مستمرة. كنا أنا وشقيقي نحاول أن نقدم لها ما يرضيها، ولكنها لم تكن ترضى فهي دائمة الصراخ والبكاء. وأمام هذا الوضع، وخوفاً عليها، طلب والد أمي أخذها لتربيتها عنده. لم يكن أمام أبي خيار آخر غير الموافقة.

عجباً لهذه الصغيرة، في اليوم الذي قرروا أخذها، كانت تلعب معنا، ولا تبكي. كانت فقط تحتاج بعض الوقت لتعتاد على غياب الأم عندما حملها أبي ليوصلها لأسرتها الجديدة. لعلها

شاهدت منظر أشقائها الثلاثة والبؤس يملأ وجوههم، والحزن يغطي أوقاتهم وحياتهم. صرخت صرخة مدوية في أركان البيت الطيني، لم تكن أصداؤها إلا نحيبنا نحن الصغار. ظلت تصرخ باكية وهي تنظر إلينا حتى فقدناها، ولم نعد نسمعها. لماذا يا شقيقتي الصغيرة اخترتِ اليوم الأخير لبقائك معنا لتعبّري خلاله عن سعادتك؟ لماذا لم تشاركينا إلا في ذلك اليوم شيئاً مالحاً اسمه السعادة؟

في ذلك المساء الذي كنا نجتمع خلاله في غرفة واحدة نتناول طعام العشاء، كمحاولة لأن نتعلم النسيان، وكيف لنا أن نبتلع غصة الأحزان كلما صعدت إلى حناجرنا الصغيرة. في ذلك المساء قال أبي مخاطباً شقيقي الصغير حسن: اذهب فانظر إن كانت شقيقتك قد شربت حليبها وخلدت للنوم؟ كانت شقيقتي عيدة هي الوحيدة التي لها شرف النوم مع أبي العجوز بعد وفاة أمنا. نظرنا نحو أبي جميعنا. ابتسم ثم غطى وجهه الحزن. الصغيرة غير موجودة، لقد سلمتها لأناس آخرين. لم يعد قادراً على إكمال طعامه، فغادر غرفتنا. في منتصف الليل فتحت باب غرفته، فوجدته مستيقظاً. يفتقد طفلته الصغيرة. يتمتم: لن توقظني ببكائها بعد اليوم. لن تطلب مني بعد اليوم الحليب في منتصف الليل. أو تنهض برغبة غريبة تريد اللعب!

تغمرُنا أحاسيسُ العجزِ
وينشلنا من بؤرةِ اليأسِ الأمل.
سيرُنا وتحمّلنا وعورة طرق حياتنا
تذيب جوانب من آمالنا بالغد.. مبكراً..
الطريق طويلة.. بداياتٌ والمسالكُ وعرة..
انطلاقاتٌ متعثرة، وخطوات مهزوزة.
هنا نوافذ مشرعة وأبواب مفتوحة
تلفح دواخل النفس
بتيارات هوائية قارصة،
تترجمُ معاني البرودة
والجليدِ المتراكمِ داخل النفس.
جذب الحنين إلى ذاتك أمي (كالمغناطيس)
يشدني نحوك..
إلى قلبك.. أنظرُ إليك
وأغوصُ في أغوارِ وجدانك
فأجد قلباً متعباً مرهقاً،
وأفتقدُك يومَ قرّر التوقّف..
وتضحكُ الحقيقةُ

وتذهبين.. ثم كالسراب تعودين،
وبرودة الداخل تعود إليّ،
لتنتهي عند درجة التجمّد مرة أخرى.
أحسّ بعجزي وحبي..
وأقفُ أمامَ حقائقِ الموتِ مذهولاً
في طرقاتِ الغربةِ والوحدة بعدَك
وفي لحظات الفرقة والخيانة / أبكي لذهابك..
وأهاجرُ في كبرياءٍ بعدك
كأني لا أهتمّ بك!
وأنا منك.. جزءٌ منك.
أنظرُ إلى بيتنا الطينيّ
وقد غدا أهزوجةً هزيلةً بيدِ الزمنِ الرديء..
أتذكرُ مرَحي وسعادَتي بك،
فأتألم وأريدُ العودةَ إلى داري..
يدفعُني الزمنُ إلى الأمام
فلا أقوى على العودةِ
وكسرِ الماضي ليكونَ حاضراً..
وهدايا الحب..

وذكريات الود..
وصفاء القلب
التي أصبحتُ بحملها حائراً
لمن أعطي؟
ولمن أهبَ قلبي؟
لا أجدك في انتظاري.
أريدُ العودةَ مبكراً
بعد أن تنقشعَ الغيوم..
بعد أن ينزلَ المطر،
وترتوي الأرض..
بعد أن يستيقظَ وجدي
وعذاب روحي من رحيلك..
كنت أريدُك أن تنتظري عودَتي..
فلا أحد ينتظرني..
كيفَ هي عودتي؟
لن تنتظريني..
لن أعودَ لداري لأنّك هجرتيها.
لكني أعودُ أمامَ حقائقِ الموتِ مذهولاً.

لا تخشى من الأمل

ذاكرتي تستغل إغماءتي الإجبارية، فأشاهد - بوضوح - ملامح أبي عندما عاد ذات مساء إلى منزلنا الطيني، ودلف إلينا، ثم جال بنظره علينا نحن الأشقاء الثلاثة، فشاهد القلق وكم أخذ من وجوهنا البريئة عفويتها، فقال لنا والسعادة تملأ جوانبه: الأسبوع القادم سآتي لكم بأمّ جديدة. لم يجد تفاعلاً وصخباً. لم يشعر بعفوية الأطفال في تزاحم أسئلتهم الدائمة عن الجديد. لقد شعر ببرودة الغرفة على وجوهنا الصغيرة، فاتكأ على الجدار وطأطأ رأسه. ثم بعد برهة من الزمن عاد فرفعه وقال: أقصد أننا جميعاً بحاجة لامرأة تقوم بأعباء المنزل من طبخ وغسل وترتيب وتنظيف وبقاء معكم وقت غيابي المستمر عن المنزل بسبب ظروف عملي.

لم يكن بحاجة للتعليل أو إبداء الأسباب فنحن كنا أكثر حاجة منه لمن تقوم برعايتنا.

عندما وطئت قدما زوجته منزلنا الطيني كان واضحاً أمامها كم نحن صغار، لكن يجمعنا حبٌّ كبير. حريصون على بعض. وكان واضحاً لقلوبنا البريئة أنها يمكن أن تغيّر ما تريد من رموز وأشكال المنزل الطيني، لكنها بكل تأكيد ستقف عاجزة عن تغيير قلوبنا. لقد مرّت أيام معدودات وأصبح لمنزلنا صورة مختلفة. ومنذ ذلك الحين أبدت رغبتها في أن تغيّر شيئاً داخلنا نحن الصغار. لقد

انتهت مراسم شهر العسل بالنسبة إلينا سريعاً ومنذ الأسبوع الأول. منذ ذلك الحين بدأ صراخ صامت، وأنين خافت، وألم مظلم. في كل زاوية من أركان منزلنا الطيني ملحمة لعراك مع زوجة الأب تنتهي بنهايات مفجعة وبهزائم متكررة لنا. كنا نحرص عند عودة أبينا إلى البيت على أن نظهر الفرحة والسعادة. لا نريده أن يشعر بألم، أو حزن. لكنه كان يجول بنظراته بين الوجوه ودموعه تملأ مقلتيه لا يمنعها من الانسكاب إلا رغبته في عدم انفراط زمام الأمور من بين يديه. يعلم أننا نفتعل الابتسامة. نختلق الفرحة. ويعلم أننا نعاني ونتوجع. لم تكن الخيارات أمامه عديدة، فإذا قرر ترك هذه الزوجة فهذا يعني العودة إلى عدم الاستقرار والتخبط. كما أن أحواله المالية متدهورة ولا تسمح له بالزواج من أخرى فديون زواجه الحالي مازالت متراكمة، يضاف إلى ذلك ضيق الوقت في أمر البحث والتقصي عن زوجة أخرى. إن هذه معضلة كبيرة بالنسبة لشخص رزقه على قدر تعبه اليومي. كذلك من ترضى بثلاثة أطفال أمامها؟!

قال يوماً: الأمور لا بدّ أن نفكر فيها بعقولنا لا بقلوبنا، حتى تكون قراراتنا صحيحة. قال أيضاً: لا تخشَ الأمل! نعم أيها الشيخ الأميّ. لقد فهمت هذه القاعدة وأنا على أعتاب سنواتي الدراسية الأولى: لن نكون بالضرورة مع كلّ الذين نحبهم.. ولن نتوقع حصولنا على كل ما نرجو ونأمل. فهمت أن الواقع يفرض

علينا أحياناً حياة لا نريدها، ولكن لا بدّ لنا أن نتعايش معها. وفهمت أيضاً أن الأمل والنظر إلى المستقبل والغد بسعادة وتفاؤل خيرٌ من المكوث وسط الواقع المظلم. منذ ذلك الحين كانت زوجة أبي تضربني. وكنت أقابل أبي العجوز ضاحكاً. لا تهم علامات الحذاء على وجهي. لا تهم كلمات السخط والشتائم. المهم أننا سعداء في ظلك!

كنت أبكي

يا إلهي! إنني أشاهد صورة شقيقي الصغير حسن الآن بوضوح شديد، هذه الإغماءة جعلت عقلي يحتفل بنبش عقود ماضية من عمري ليخرج ذكرياتٍ عتيقة، وقصصاً ضاربة في عمق زمن الطفولة. منها ذكريات انفلاتي وهروبي من عنف هذه الخالة ضدي حيث كانت تنبع من وقت لآخر بفضل شقيقي الصغير حسن. ومن لطف الله بنا أن رزق هذه الزوجة طفلاً وفارقته وهي متعلقة به كأي أم. وعندما شاهدت شقيقي الصغير حسن تعلق قلبها به وأحبته حباً جارفاً، وكانت تفضله علينا في الملبس والغذاء والألعاب، وتحرص عليه لدرجة غير طبيعية بلغت حتى منعه الخروج للعب معنا أو مع أقرانه خوفاً عليه.

الصغير حسن كان كبيراً جداً في أخلاقه، فقد كانت تعطيه الحلوى فيقتسمها معنا. وكانت تعطيه الألعاب فيشركنا معه في اللعب بها. كان حسن الصغير يبذل جهده ليمنعها أن تصبّ جام غضبها علينا. في أحد الأيام – وكنت مولعاً باللعب بالنار، وأندهش من حرارتها وكيف تشتعل– في تلك الظهيرة التي خلد فيها الجميع للقيلولة ينشدون الراحة، قمت بإشعال النار في بعض الأقمشة في المطبخ. كادت زوجة أبي تنفجر من الغيظ والغضب والحنق عليّ، ولكنها كتمت حقدها حتى استيقظ أبي وغادر

خارجاً. وأنا بدوري هربت إلى سطح منزلنا الطيني، وكان دائري الشكل، وبالتالي يستحيل عليها إمساكي. كان السطح ملاذي دوماً حيث أهرب إليه حتى عودة أبي، إلا أنها في ذلك اليوم أقسمت أن تمسك بي مهما كلفها الأمر، فوضعت المتاريس والحواجز في جزء من السطح؛ ظلت أكثر من ساعة تعمل عليها، وأنا أراقبها من بعيد. كانت قد قررت أن تمسكني وتوسعني ضرباً. أولاً على إشعال النار، وثانياً لعدم تسليمي نفسي، وبعد هذا لن يزيل هذه الحواجز إلا أنا! عندما أتمّت وضع هذه المتاريس والحواجز شدّت حزاماً على خصرها استعداداً للمطاردة. قال لها حسن الصغير وهو يرتجف ويبكي: أريد أن أعترف: أنا الذي أشعلت النار وأحرقت الأقمشة. أطالت النظر إليه، كأنها قد بهتت تماماً، ثم قالت له: ولماذا لم تتكلم منذ البداية؟ فقال وهو يبكي بصوت مرتفع: لقد خفت أن تضربيني. أخذته في حضنها وهي تقول له: هل هناك أم تضرب ابنها؟ لا أحد يخاف من أمه، ثم أخذته ونزلت به إلى المنزل. بعدها بلحظات- وبتردد- قمت أهبط الدرجات إلى الأسفل، فوجدت شقيقي الآخر ينظر إليّ بذهول. أحسست بشيء ساخن على خديّ، وضعت يدي، وكنت أبكي. هل هي دموع الخوف؟ أم تراها دموع السعادة لنجاتي من الضرب؟ أم هي دموع العجز عن شكر شقيقي الصغير حسن؟

المدافع عني يتوقف

تعصف بي الذاكرة وتموج. تتلاعب بفؤادي وتقسو على كياني وهي تجتر هذه الأحداث، وتدفع بمواقف مؤلمة وأخرى غريبة كان بطلها الوحيد أبي الأميّ الذي لا يقرأ ولا يكتب. تتراقص صور أبي الذي أشاهد التعب على محياه الآن. وكثيرة هي الأوقات التي رأيت فيها الحزن يكسو وجهه. وكان دائماً يقول: غداً تكبر وتساعد أباك. يقولها وهو يمسح العرق الذي يتصبّب من جبينه. كلما كنت أذهب إلى متجره الصغير أجده يرتب كراتينه شبه الفارغة. وبرغم هذا كانت أمور عديدة تشغلنا عن استرجاع أحزاننا وآلامنا. قد نكون تعلمنا من أبينا طرائق النسيان. كانت مشكلتنا ونحن في تلك السن ليست الفقر والعوز.. لا.. إنما هي مع هذه الخالة. لكننا تعوّدنا التعامل معها فعرفنا بفطرتنا وطفولتنا ما الذي يغضبها فنتجنبه، وما الذي يسعدها فنعمله. لذا كانت هناك فترات هدنة تطول أحياناً، وتقصر أخرى.

لم يجُل بذهن أحدنا أن هناك رحلة جديدة من الألم والحزن. لم يتبادر لعقولنا الصغيرة أن الماضي سيعود بقسوته التي نسيناها، ونسيان آلامه المريرة التي غابت وسط همومنا اليومية، إلا ذلك اليوم الذي عاد فيه أبي العجوز وعيناه تطفحان ألماً ودموعاً. بدون أن يتحدث.. وبدون أن يتكلم، وقعت زوجته على الأرض. لقد

فهمت أن حسن الصغير قد فارق الحياة. أن الصغير قد مات.. هكذا إذن أيها الشيخ العجوز تستسلم. هكذا إذن ترضى بقرار الرب. وهكذا لسانك وكيانك وقلبك يقول: لقد بدأ الموت معي وهكذا يستمر ليأخذ أصغر أطفالي وأحبهم وأجملهم. أنا وشقيقي مذهولان لهذه المشاهد الدرامية التي لم نسمع خلالها كلمة واحدة تقول إن حسن لن يعود إلى المنزل. أما هذا الأب المفجوع فقد نظر إلينا وقال: أنتما فيكما الخير. وابتسم وقال: إلهي لك الحمد فقد أخذت قليلاً وأعطيت كثيراً! زوجته تصرخ وتلطم وتقول: لا.. لا..لا.. حسن أين أنت. تجمع ملابسه وتضمها إلى صدرها، وتقول وهي توجه كلامها إليّ: لماذا لم تمت أنت؟ لماذا لم يأخذك الله أنت؟ هنا عرفت أن المدافع عني قد توقف. وأن ذاك الذي أحتمي به قد ترك الساحة خالية. لا أحد فيها سواي. في ذاك الزمن، كانت تلك هي مشكلتي الكبيرة. وهي سبب بكائي شقيقي الصغير حسن!

وطن من الكراتين

مرة أخرى يطبق الحزن على منزلنا الطيني القديم. إنه مبني من التراب والحزن والوجع. واليوم تعلمتُ وشقيقي شيئاً جديداً: كيف نستسلم؟! في غمرة ذهولي وعدم التصديق أن شقيقي حسن لن يعود كنت أوجه نظراتي نحو شقيقي الأكبر. لكن نظراته نحوي كانت أكثر عمقاً. لقد فهمت في أي شيءٍ كان تفكيره. هل كتب الرب لنا أيضاً أن نفترق؟

أما أبي فقد أخذ في استرجاع كل جميل قد فقده في حياته. يسترجعه، كذكرياتٍ قاتلة. ومنذ ذلك الحين أصبحت أشاهد كل الأحداث المؤسفة المحزنة في وجهه وفي تقاسيم محياه. وها هو اليوم يحاول أن يستجمع ما تبقى منه أو ما تبقى له فضمّنا إلى صدره. لعله خشي أن يظل وحيداً، أو أن يظل بقرب أناس لا يحبونه. كان يشعر في أفئدتنا الصغيرة حبنا الحقيقي الكبير العظيم له. لكنه في كل يوم كان يحسّ بهذا الحب يُختَطف منه شيئاً فشيئا. يلاحظ أن الموت يسابقه فيختطف منه جزءاً من هذا الحب كل يوم. فحسن الصغير اليوم ضحية وباء الجدري وقبله أمي، جميعهم ضمن سلسلة ضحايا الوباء والجهل والتخلف التي عانى منها جيل كامل عاش في المجتمع المدني الجديد الذي تشكل؛ جديدٌ ولكن مع الأسف الشديد، سرعان ما انتشر فيه

الفساد الإداري وبالتالي تعثرت التنمية فأصبحت الرعاية الصحية سيئة والرعاية الاجتماعية تكاد تكون معدومة وكثرة المحسوبيات والوساطات والأنا المتضخمة والتهافت القاسي على المادة. ليست آمال أبي العجوز هي التي أُحبطت وحسب، إنما الكثيرون كانوا محبطين من هذه الحياة. ليس متوقعاً من أي نظام مهما كان عادلاً ومنصفاً لاحتياجات الناس أن يمنع القدر والألم، إنما لو وجدت الإرادة التي تشعر الإنسان بالاحترام في وطنه، وتكون أنظمته قد صممت لرعايته لكونه إنساناً، لا لكونه ابن فلان أو نحوها، فإن الألم سيكون أخف، ذلك أنه أمام العين قد تم بذل جهد لأكون إنساناً سعيداً يحظى بعناية ورعاية كاملة، ولكن وفي الحقيقة إنّ إهمالاً ومحسوبياتٍ وطبقياتٍ ودرجاتٍ وفئاتٍ حتى في تلقي العلاج منتشرة ومتفشية؛ وهذا لا يحدث إلا في وطن من (الكراتين). من الهياكل. من الأنانية. وبرغم هذا لطالما سمعته مرات عديدة يقول: إلهي لك الحمد لقد أخذت قليلاً. وأعطيت كثيراً!

أيها الموت،

لم تزلْ تمارس هوايتك

لم تزلْ قاسياً

عنيفاً

لا تأبهُ لأحدٍ
ولا تهتمّ لأحد..
مازلتَ تقسو على القلوبِ المسكينة
تضربُ بعنفٍ نفوساً بريئةً.
آهٍ أيها الموتُ لو كنتَ ترى دموعنا
آه لو عرفتَ كمْ أبكيتَنا
كم حفرتَ فينا أنهاراً وبحاراً من الألم الفاضح
والحزن المهووس داخل أرواحنا المتعبة.
أيها الموت،
لماذا تختار طفلاً
مسكيناً؟
لماذا تسرقُ كيانَه الغضّ
وتتركَ روحَه الصغيرةَ تغادر للأعلى؟
ونحن في أمسّ الحاجة إليها..
جسده..
ماذا أفعل بجسده الصغير المنهك بسببك؟!
ماذا أصنع دون أن أسمع صراخه..
بكاءه..

دون أن أشعر بوجوده.

أيها الموتُ،

إنك ترتكب الجرائم.

أيها الموت:

إني أول الشامتين بك

عندما تذبح..

عندما تقهر..

عندما لا يكون لك قوة

أكون أول الضاحكين

الساخرين..

سأُروِّي عيوني بمشهدك تغادر للأبد.

وأرويها حباً لمن خلده الله!!!!

لا.. الأولى

كان لا بدّ للحياة أن تستمرّ. لن تتوقف عند أحزان أحد من البشر. فما بالك بفقراء وأطفال!؟ في الحقيقة أنني عندما فتحت عينيّ لم أشاهد سوى أشباح، ولم أرَ حقيقة واحدة.. شاهدت ما يشبهها لا هي بعينها، لذا كنت مقتنعاً بأن هذا نصيب معرفتي وهذه هي الحدود القصوى لتطلعي. لم أحاول تجاوز سياجٍ عمرته بنفسي داخل كياني، كل ما بعد ذلك كان محاولات للحياة. كل ما عرفته أن القسوة شيء طبيعي وأن الحرمان شيء مألوف. فلا غرابة في أن تهان، ولا غرابة في أن تطرد، أو أن تحتقر. لم أتعرف على الكرامة، ولم أدرك معاني الكبرياء. عشت ذليلاً بائساً، ومنبوذاً. وبرغم ذلك كنت مقتنعاً وراضياً. متفهماً بأن ذلك طبيعي، وشيء مألوف. إنه قدرنا أن خلقنا الله فقراء تعساء. ضعفاء محتقرين. لم أكن أعلم أن الفقراء عندهم مشاعر وأحاسيس!

عقلي في هذه اللحظات التي أغفو فيها يخبرني – والآن فقط – أن أبي صعق عندما شعر أن هذه هي مسلّماتي الأولى عن الحياة. لقد ذهل طويلاً عندما أحس أن هذه هي مفاهيمي البدائية عن الدنيا. لقد علم بحسه الإنساني ومن خلال تجربته في الحياة أن هذه المبادئ هي بداية الانهيار والانحدار. وكان لا بدّ أن يقوم برسالته

كأب وكمعلم ومربٍّ. وكان عليه أن يبدأ بعلاجي، فيضيف قيمة للحياة في نفسي. وإنني اليوم أتعجب تماماً كيف فكر آباؤنا الأميون؟ كيف علمونا وقاموا برعايتنا والمحافظة علينا؟!! لقد شرع في وضع معالم الدرس الأول لصغيره. وهذا الدرس ينحصر بتعليمي: كيف أقول:... لا. كان لا بدّ أن يعلمني كيف أقول: لا، عندما لا يعجبني شيء، أو لا أريد شيئاً. وكلمة.. لا.. بالنسبة لي كلمة خارج قاموسي ومصطلحي، فمفهومي البريء هو مفهوم الخائف دوماً والذي يطلب الأمن والسلامة. لقد كان في اعتقادي أن هذه السلامة لا تأتي إلا بالموافقة الدائمة والإجابة بنعم دوماً. كان والدي يتعمّد أن يكرر أمامي كلمة لا. ثم وجد أنه من المناسب – هذه المرة – أن تكون: لا.. قولاً وفعلاً. عندما كان يأتي زبون إلى متجر أبي للشراء، كان تفضلاً منه أن يقوم بالشراء من هذا المتجر الصغير. فكيف لأبي أن يقول له: لا؟ عندما يسأله الزبون عن سلعة ولا توجد لم يكن أبي يقول له: لا توجد. بل كان يجيبه: سأحضرها غداً، لقد نفدت. إذن كيف يعلمني أن أقول: لا؟ في أحد الأيام اصطحبني معه إلى سوق الجملة لشراء بعض الاحتياجات لمحله الصغير. وبينما كنا ننتظر أمام متجر كبير مع ثلة من الباعة الآخرين، خرج التاجر صاحب المحل وهو منتفخ الأوداج والبطن، محمرّ الوجه من شدة الحر. متأكد من أنه لا قانون يردعه ولا نظام يوقفه ولا رقابة يخشاها،

فقد وضعها جميعها تحت قدمه هازئاً من المجتمع المدني وعدالته. قال لأصحاب المحال الصغيرة ومنهم أبي: اغربوا عن وجهي! أحد أصحاب المحال الصغيرة كان شديد الاحتجاج، فهو الذي استطاع أن يفرك كفيه ببعضهما ويقول لمن إلى جانبه: لا حول ولا قوة إلا بالله. الآخرون كانوا صامتين تماماً! كيف يعلمني أبي أن أقول لا، وهو لا يستطيع التفوّه بها أمامي أو أمام الناس، وفي تعاملاته وكل حياته؟! كنت أنظر إلى وجهه وكأنه كان مذهولاً أو مستغرباً. كأنه يريد أن يقول: إن هذا المشهد مألوف حيث يتذكره فيما مضى حيث كان يقف صاحب الإنتاج الزراعي على أراضيه يمنع بيعه بسعره المعقول فيتضرر الناس الآخرون بينما تأكل الطيور ثمار الأرض وغلاتها. صحيح أنه في المجتمعات قبل تكوّن الدولة والمؤسسات لم يكن هناك نظام ووزارة تجارة ومراقبة لجشع التجار واستغلالهم للناس وكان شيخ القبيلة الذي قدمت له من المحصول هدية تكفيه وبيته يتغاضى عن هذا الجور الذي يلحق بالضعفاء والمساكين، لكن أبي كان يعتقد أن في دولة المؤسسات يختلف الوضع حيث لن يجد هذا التاجر أي حماية. لكنه اليوم يشاهد أن من وضع التشريع ووضع النظام، هم شيوخ القبيلة الجدد في المجتمع المدني الجديد؛ لكنهم بلباس مشرّعين وقضاة ومسؤولين ووزراء، وأيضا منهم من بلباس علماء الدين والتقاة المؤمنين بالرب وتشريعاته!!؟

أتذكر أبي وهو يمسك يدي في طريق العودة على أقدامنا، قال وهو يغالب الغصة في حلقه: غداً ستتعفن البضاعة في مخازنه. لقد مرّ الغد يا أبي وبعد الغد، وبضاعة التاجر الأحمق لم تتعفن. هل تعلم يا أبي الحنون أنه باعها بسعر أعلى، بل ومضاعف؟!!

لكن أبي لم يتوقف هنا فقد كان دوماً يحاول أن يوجه نحوي رسائل سمعية بسيطة تحمل دلالاتٍ كبيرة وبمعانٍ عظيمة، لقد قال لي مرة: الأيام لا تبقى على حالها. ستتغيّر الأمور وتتبدل الأحوال فلا تبقَ في المكان نفسه. اسعَ لطلب رزقك دوماً. كانت حيرة أبي كبيرة. كيف يعلمني أن أقول: لا.. لا..لا.. وهو لم يستطيع أن يتفوّه بها في حياته.

في قسوة الحر كنت أختنق من جو المدرسة فهي مبانٍ هُيئت لتكون منازل و لم تبنَ لتكون مدارس وفصولاً دراسية. ليس فيها مكيفات، والمياه غير باردة، والفصل مكتظ بالأطفال، ولا تهوية جيدة؛ وبرغم أننا – كسكانِ مدنٍ في المجتمع المدني الجديد – كان عددنا قليلاً جداً وثروة البترول هائلة، وهو ما يعني مدارس واسعة، فيها ألعاب وساحات وملاعب وحدائق ومعلمون مهرة ذوو شهادات عليا ويتقاضون رواتب مرتفعة، لكن كل هذا كان أشياء في الأحلام.

كنت مهملاً دراسياً. متخلفاً عن أقراني. متبلد الإحساس. أقضي نهاري في اللعب، وأماسيّ في التمعن في النجوم قبل النوم. كنا

ننام على أسطح منازلنا الطينية في الصيف طلباً للبرودة والهواء. وكان النسيم بارداً والجو المسائي رائعاً خلاباً. بعد انقضاء أشهر عديدة على مقاعد الدراسة في سنتي الأولى، أصبح إهمالي لا يقاوم، وبات اللجوء إلى الضرب من المعلمين خياراً مفتوحاً باستمرار وبتكرار، لذا أصبحت ألجأ إلى الهرب والسير في الأزقة والشوارع منذ الصباح وحتى بعد الظهر. حيث أعود إلى أبي في محله الصغير فيستقبلني استقبال الأبطال وكأنني فارس جاء من أرض المعركة منتصراً، وقد أثخنته سهام العدو، إلا أنه شامخ برغم ألمه. كان أبي يقدم لي كافة أنواع العصائر والشوكولا، ويجلسني بجوار المروحة الكهربائية الصغيرة التي لا تبدو أنها تعمل إلا حياء منه ومن شيخوخته!

استمرّ حالي هذا أسبوعاً، أو أسبوعين. بعدها كان لا بدّ من إشعار المنزل بتغيّبي المستمر. استدعى مدير المدرسة شقيقي الأكبر الذي كان في فصل دراسي أعلى والذي كان دوماً يضايقني بأسئلته عن تواجدي فترات الاستراحات بين الحصص ووقت الاستراحة الكبرى. مرة كنت أقول له إنني في الإذاعة ومرة أخرى مع أصدقائي! ذهب شقيقي بكل ما تعني الكلمة وما تعنيه الأمانة، فأخبر أبي عن تغيبي، وأني قد أفصل. تألم الشيخ العجوز كثيراً من حالة التشرذم التي عشتها منذ سنواتي الأولى. في اليوم التالي عند وصولي متجره، لم يستقبلني كما عوّدني. ظللت أنتظر

منه سؤالاً عن أخبار المدرسة، لكنه لم يسأل. لم يكلمني. لحظات ووصل شقيقي، فهش وابتسم له واستقبله بفرحة كبيرة وبحفاوة مبالغ فيها. قدم له أصناف الحلوى والشوكولا. وأنا أراقب! حتى إنه لم ينظر نحوي؛ ثم أوصى شقيقي بالرّواح للراحة. جعلت أمعن النظر فيه وقد ترقرقت الدموع في عيني، وباتت معالم الرغبة بالبكاء عالقة بحلقي. عندها قال دون أن ينظر نحوي: ما الشيء الذي يضايقك في هذه المدرسة؟ لقد احترت في جوابه قليلاً. ثم قلت وأنا أكفكف دموعي وأمسحها بمعصمي: لقد كانت.. لا.. الأولى يا سيدي.. إنها لا.. على وضع المدرسة المزري، على طريقة التعليم، على تكديسنا في غرف ضيقة وكأننا حيوانات. إنها لا على غياب الوسائل التربوية والنفسية للتعامل مع أطفال، على الترهيب والتخويف منذ الصباح الباكر، إنها لا لكل الأمور السيئة في المناهج وطرق التدريس.

لقد بكيت جداً على سطح منزلنا الطيني. تمنيت لو أنه ضربني، وعاقبني، لكنه لم يفعل. في اليوم التالي كان يضع بعض (الكيك) والعصير في حقيبتي ويوصيني. ويقبّلني على رأسي وكأنني لم أفعل شيئاً. طوال الطريق.. طوال الطريق إلى المدرسة كنت أبكي. منذ ذلك الحين – فقط – تعلمت أن أقول: لا.. لا..لا.. بدون خوف.. بدون تردد، وبصوت مرتفع.

عفو الفقراء

ليتني أستطيع الاستيقاظ والانفلات من هذه الأحلام التي يعاد فيها شريط حياتي. أشعر أنني مربوط أو مكبل ولا شيء يستطيع الحراك فيّ سوى عقلي الذي ذهب إلى الماضي وأحداثه. ذهب نحو العقل الباطن، لعله يعوّض اقتصار مسار الحياة على مثل هذه الذكريات. آه.. هذا شريط من ذلك الخميس الصيفي حيث استيقظت لتوي من نوم عميق: انتظرت الإفطار طويلاً، لكنه لم يحضر. كانت زوجة أبي منهمكة في غسل الملابس، وتجهيز طعام الغداء. ليس لديها متسع من الوقت لتقديم إفطارٍ متأخر لطفل بائس كسول. أمام هذه الحقيقة التي تلفحني كل حين، قررت الخروج إلى متجر أبي العجوز لعلي أجد ما أسد به جوعي من حلوى وعصير. قمت أتمتم: إن هذا أفضل لي فهي فرصة للجلوس إليه والاستماع لأحاديثه المثالية حول الحياة.

في ذلك الوقت بدأت الإشاعات تملأ الحي الترابي حول خطط للحكومة لإيصال الهواتف للمنازل. هناك من يكذب هذه الأنباء جملة وتفصيلاً، وهناك من يطالب بضبط النفس حتى تتضح معالم الوضع. وبرغم أن أعمال الحفر قد بدأت إلا أن الناس متشككة وينتابهم قلق ممزوج بفرح حذر، وكأنهم لا يريدون انكسارها. كان عمال الحفر سعداء بتضامن الناس معهم. فقد كان أهل

الحي يتسابقون لتقديم الماء البارد وبعض المأكولات لهم. كانت سحناتهم من جنوب شرق آسيا، وكانوا مذهولين من كرم الناس وتعاطفهم. كانوا يعملون تحت لهيب الشمس، حتى إنّ وجوههم أصبحت محمرة. وكانت آلات الحفر لا تتوقف عن الضجيج وسكان الحي سعداء، كأنهم يستمعون لمقطوعات موسيقية عذبة أو إلى عزف منفرد على آلة الكمان لفنان مرهف. مرة تسمع طقطقة الحفارات وأخرى لصرير الجرافات.. وبرغم ذلك لا أحد يعترض أو يقول إن هناك إزعاجا. بل كأنه مهرجان تضامنَ فيه سكان الحي مع الحكومة. في هذا الصباح كان أبي مزهواً أن بدأت أعمال الحفر من عند متجره الصغير. لعل التاريخ يذكر هذا. بدأ بتوزيع المشروبات الباردة مجاناً على الجميع احتفاء بهذه المناسبة الوطنية الهامة. وفي لمح البصر كانت الجرافة التي تخرج كمية من التراب قد أوشكت على تكويمها على أحد أطفال الحي الذين كانوا يتجمهرون للاستمتاع والمشاهدة. قفز أبي وسحب الطفل أو دفعه. لقد تعددت الروايات، إلا أنه أصيب في بطنه إصابة بليغة. وحتى اليوم لا يعرف كيف حدثت هذه الإصابة. التفّ حوله صغار الحي وكباره يشيدون ببسالته ورجولته ونخوته وهو يتلوى بينهم. تحامل أبي على نفسه وتوجه إلى المنزل. كنت عندها موشكاً على الخروج فإذا بي أشاهد مَثَلي في الحياة ممسكاً بيده على بطنه يتلوى من الألم. كادت عيناي تقفزان من مقلتيّ

وأنا أقول: ماذا بك يا أبي؟ لم يجبني، وعندها أصابتني مرارة فقلت: يبدو أن طعام الإفطار هو أيضاً قد تبخر! لكن أبي دخل على الفور إلى زوجته غير آبه بمشكلتي مع الجوع. فأيقظتني من أحلام يقظتي صرخة مدوية أطلقتها زوجته فجمعت نسوة الحي واكتمل مشهد البطولة! وبرغم أن هذه الزوجة أميّة لا تقرأ ولا تكتب إلا أنها إلى جانب إجادتها للصراخ الدائم، عملت إسعافاتها الأولية الخاصة بها، فأوقفت نزف الدم واسترخى أبي. ظل نائماً حتى عصر ذلك اليوم.

كنت خلال ذلك أستمع لروايات الأطفال وهم يصفون والدي بأنه بطل، وأنا في بلاهة باردة! والجيران، كانوا كلما دلفت منازلهم يرحبون بوجودي ويقدمون ما لذ وطاب لديهم، لابن البطل. في السابق كنت أطرد بحجة أنني قد أتسبب في إهمال أبنائهم لدراستهم. كأنني قد انتهزت بطولة والدي عندما عدت إلى بيتنا فوجدته مكتظاً بعدد من الرجال والسيارات الفارهة تقف عند بابه الطيني. إنه تناقض غريب في الأشكال. عندما دلفت فشاهدت رجلاً يتحدث لأبي، وعرفت فيما بعد أنه مسؤول كبير في الشركة التي تقوم بالحفر، وكان بصحبته آخرون متفرنجون بلباسهم؛ كأن مهمتهم فقط توزيع الضحكات علينا. كان يقول هذا المسؤول: نحن نأسف لما حدث لك وهذا قضاء وقدر. ونحن

نقدم لك مبلغ ألفيّ ريال، ليس على سبيل التعويض، لأننا لم نرتكب خطأ بحقك، وإنما تعبيراً منا عن سعادتنا بسلامتك!! ردّ أخي الكبير. وأخي متغطرس، فقد كان تعليمه عالياً جداً، حيث يدرس في الثانوية العسكرية ويعرف من أين تؤكل الكتف، ردّ قائلاً: إن ضرراً بالغاً قد وقع بحق أبي. ولقد منع حادثاً خطيراً كاد يودي بحياة إنسان. وإن أبي قد ضحى بنفسه. في ذلك الوقت كنا نقضي كل أمسياتنا على أسطح منازلنا الطينية طلباً للبرودة والهواء العليل. وكانت أحاديث إخوتي مع والدي تنصبّ في تدارس السبل الكفيلة بشراء سيارة (هايلكس تويوتا)، وكيفية توفير قيمة شرائها، وكانوا يحاولون حصر الأسماء التي يمكن أن تقرضنا. لا أريد الإيحاء بأن أخي كان ينتهز فرصة هذا الحادث للابتزاز، لتوفير مبلغ شراء السيارة (الهايلكس التويوتا)، فالحقيقة أن مبلغ الألفيّ ريال في ذلك الوقت لم يكن قليلاً. لكن أخي كان مفرطاً في التفاؤل. أجاب مدير الشركة بأنه لا يجد مانعاً من رفع المبلغ إلى 2500 ريال مقابل أن يتم التنازل. أبي وكأنه قد أمسك بزمام الأمور، شعر أن عليه مسؤولية وطنية كبيرة فقال: لا أريد تعويضكم. العفو عند المقدرة. لكن من كان منا يستطيع أن يطلب من هذا الأب أن يتوقف، ليتذكر أنه بحاجة ماسة لسيارة، أو بحاجة ماسة إلى هذا المبلغ لتسديد ديون محله الصغير لتجار الجملة؟ كان المهم لديه في تلك اللحظات هو أن

تصلَ رسالته إليّ. حيث كان يرمقني بنظراته بشدة لكي أنتبه لهذا الحوار التاريخي الذي لا يتكرر في عمر الفقراء. وأضاف إنه لا يريد شيئاً وإنه سيتنازل، ولكن شريطة أن يتم إنجاز العمل بشكل سريع. لقد تحولت ضحكات المتفرجين إلى ابتسامات مذهولة، واندهش كثيراً مسؤول الشركة وقال في غمرة سعادته لأبي: سوف يكون منزلك هو أول بيت يدخله الهاتف في هذه المنطقة. وإن رقمنا سيكون مميزاً، ولسوف ينهون العمل تماماً خلال شهر واحد فقط. وخرجوا سعداء ببصمة الأب الكبير على التنازل! لم أكن أعلم عندها أن الأرقام المميزة ضاربة العمق في ثقافتنا الأزلية. لقد مرّت أشهر عديدة و لم ينهوا عملهم. وكان المنزل الطيني لأبي العجوز هو آخر المنازل التي تسمع فيها (رنة) الهاتف.

الخسارة

آه.. فبرغم إغماءتي إلا أنني أتألم من صداع يعصف برأسي. هكذا أحس، والآن أشعر بأصوات وأشاهد أنواراً بيضاء، هناك عدد من الناس يلبسون الأبيض - هل هم ملائكة؟! قد أكون ميتاً الآن. يا إلهي إنني أشعر بيد أحدهم تهزني وتنادي باسمي. هل أنا في القبر؟ لكنهم أكثر من ثلاثة وليس كما قد قيل لنا: يحضر ملكان اثنان فقط للسؤال! مضى بعض الوقت فانعتقت من سيطرة هذيان عقلي واستيقظت من إغماءتي، عندها وجدت نفسي ممدداً على سرير في غرفة فيها عدد من الأجهزة الطبية. اقتربت مني إحدى الممرضات. قالت وهي تبتسم: أخيراً استيقظت؟! كنت كالأبله تماماً لا أعرف بماذا أجيبها، وكان الصداع يعصف برأسي، صداع يشل رأسي تماماً عن التفكير، ثم أضافت: يبدو أن عدة أيام قد مضت لم تنم فيها قبل وصولك المشفى؟ وضعنا لك مهدئاً لأعصابك فقط، انظر كم استغرقت لتصحو. حمداً لله على سلامتك. نهضت أحاول أن أكون بوضعية الجالس على السرير لكنني شعرت بتعب بالغ. مفاصلي مرهقة كأنني كنت في سباق عاصف شديد التنافس. اقتربت تمدّ لي يد العون، وبعد أن اعتدلت في جلستي، قرّبت نحوي بعض الطعام. رائحته الشهية أثارت فيّ الجوع البالغ، برغم هذا ما كنت أستطيع أن أبلع ريقي

فما بالك بوضع بعض الطعام في فمي! حضر أحد الأطباء، وبملامح جامدة قال: هل تعلم كم مضى عليك نائماً؟ ابتسمت وأجبت: كم ساعة؟ رفع نظره نحوي وابتسم بسخرية، وقبل خروجه من الغرفة قال: ثلاثة أيام! نظرت نحو ممرضة كانت ترافقه وسألتها: هل هو جاد؟ لم تفهم سؤالي. كانت تريد أن أتحدث معها باللغة الإنجليزية. لعنت في تلك اللحظات كلّ الذي تلقيناه في مدارسنا من تعليم. ذلك التعليم الذي لم يؤسس لنا اللغة الإنجليزية منذ نعومة أظفارنا، ومنذ صغرنا، لكنني فهمت من هذه الممرضة وبصعوبة أنه مضى عليّ هنا ثلاثة أيام فأكدت كلمات الدكتور. أحد الأطباء المتخصصين في المخ والأعصاب أخبرني أن المخاوف كانت تنتابهم أن لا أستيقظ! ضحكت وأجبته: ولماذا الخوف، فلا يوجد هناك من يحاسبكم. مجرد تقرير يذكر فيه أي سبب. صدمة عاطفية، صدمة وجدانية، أو حتى صدمة كهربائية. لا أكثر. إحدى مرافقات الطبيب قالت وهي تحاول أن تغير موضوع الحديث: كان أحد إخوتك هنا قبل أن تستيقظ بساعة. كنت موقنا تماماً أن كلماتها غير صحيحة، فقد شاهدت حقيبتي لازالت ملقاة على أحد المقاعد التي أمامي. ترجلت من سريري وكأني طفل لتوه يتعلم المشي، سألت هذه الاختصاصية: هل يمكن لي أن أشاهد أبي؟ ترددت كثيراً واحتارت في إجابتي. ثم إنني جلست أنتظر إجابتها فوجدتها وقد اكتسى

وجهها بالكآبة، والدم قد تصاعد سريعاً وبدا محياها فقلت لها: لا بأس أخبريني هل حالته الصحية متدهورة؟ قالت: لقد توفي أبوك منذ مساء الجمعة الماضي. لقد مضت ثلاثة أيام على وفاته. كنت مبتسماً، وفجأةً امتلأت عيوني بالدموع ذهولاً، ثم تحولت ملامحي فغطاها الحزن. في تلك اللحظات كنت بحاجة لإخوتي. رفعت رأسي نحوها، بدون أن أسألها. قالت: لا أحد من إخوتك تحمّس حتى لتوقيع أوراق دخولك المشفى كمريض، ثم صمتت. كأنهم في المشفى قد تورّطوا بي! فعليهم مراعاة نفسيتي، وعليهم أن يخبروني عن وفاة أبي، وعليهم أن يعللوا لي غياب أهلي حتى عن الاطمئنان على صحتي؛ وبرغم هذا لم تكن لديّ مصيبة أكبر من فقدي لأبي قبل أن أراه. وبدون أن ألقي حتى نظرة أخيرة عليه. أجهشت بالبكاء الشديد، فدلف الغرفة الأطباء، وأحد الرجال جعل يحدثني عن فضيلة الصبر، ثم أعادوني إلى سريري، فعدت للنوم والاسترخاء! استغرقت في النوم لأحلم بأبي فأعوّض الواقع بالأحلام.

ليتني فقط...

مضت أيام أخرى وأنا في ذهول مما يحدث لي وما أتعرض له من إجحاف بحقي. فلم أستوعب سريعاً الصدمة، وبقيت أعالج نوبات الأمل الكاذب بأن أرى أبي. وكلما مضى الوقت ترسخت الحقيقة التي أحاول أن أنكرها. بعدها استسلمت واعترفت ببؤسي. كنت أحمل حقيبتي مغادراً المشفى. وكنت أتطلّع في الوجوه فأرى في عيون الأطباء والعاملين نظرات العطف. إنهم يعلمون أنني قد حضرت للاطمئنان على صحة أبي فلم يمهلني القدر حتى لرؤيته! كنت أحمل حقيبتي مغادراً وأسأل نفسي: ما هي أكبر خسارة قد يتعرض لها إنسان؟ لا شكّ هي خسارة الوقت.

اليوم الكئيب يسير أسوداً وبتثاقل. مازلت أذكره وأنا أجرّ الخطى وحيداً كما كنت دوماً. وها أنا الآن مرة أخرى في الحافلة تعيدني إلى صخب الحياة.. التأمل.. الوحدة.. الشعور الدائم بالذنب، والشعور بعدم حب الآخرين، وبعدم رغبتهم حتى في الالتقاء بي. لم أفقد أبي وحسب، فقدت حتى إخوتي وأشقائي. بل فقدت حتى كلمة عزاء واحدة أسمعها بحق أبي. كلمة واحدة تشعرني أن هناك مَن يعلم بحجم فقدي، بحجم خسارتي. لأول مرة، شعرت بأنني بائس بحق. وبأنني منبوذ. كنت في هدوء كبير وهذه الحافلة

تشق الوقت. هدوء محمل بأحداث ومواقف تضج منها الذاكرة. وكنت أردّد – بلا استيعاب – لابد أن أستيقظ من هذا الواقع الأسود. وأحياناً أردد ما قالته فدوى طوقان:" أخشى الغد، أخشى المجهول الآتي من غيب الأقدار، ربي لا تجعلني عبئاً تنبذه كل الأجيال، أنتظر بلوغي أرض الصمت، أنتظر الموت، طالت دربي يا ربي قصرها، واختصر المشوار"... كنت أقول أيضا: أيها الأب العزيز. لعله الموت الذي يمارس سلطة غريبة فظيعة منحها له الربّ. أبي لعله الموت الذي بسببه تنتهي كل قصة نكتبها. أبي ليتني رأيتك فقط. ليتني شاهدتك فقط! ليتني لمحتك فقط!